بونابرت والإسلام

*

بونابرت والدولة اليهودية

- بونابرت والإسلام – بونابرت والدولة اليهودية
- تأليف: هنري لورنس
- ترجمة: بشير السباعي
- الإصدار الأول: ١٩٩٨
- الناشر: مصر العربية للنشر والتوزيع

  ١٩ ش إسلام – حمامات القبة

  القاهرة – جمهورية مصر العربية

  ص.ب.: ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب

  تلفون وفاكس: ٢٥٦٢٢٦٨
- رقم الإيداع: ١١٥١١٤ / ٩٧
- الترقيم الدولي: ISBN 977-5471-18-4

هنري لورنس

بونابرت والإسلام

*

بونابرت والدولة اليهودية

ترجمة

بشير السباعي

دار مصر العربية للنشر والتوزيع
القاهرة

إلى القارئ

كـان مـن المخطـط إصـدار الدراسـتين المنشورتين هنـا فـي كتيبيـن منفصليـن، إلاَّ أن اعتبارات عملية إلى جانب الاعتبار الرئيسي الذي يتمثل في انتماء الدراسـتين إلـى قلـم مؤرخ واحد يتناول المواقف السياسية لشخصية تاريخية واحدة تجاه موضوعين يعتـبر الشرق الأوسط ساحتهما الرئيسية المشتركة قد شجعتنا على الجمع بين الدراسـتين فـي كتاب واحد. ولا يخامرنا شك في أن القارئ الكريم سوف يدرك مشروعية هـذا الخيـار بعد أن ينتهي من قراءة الكتاب.

"الناشر"

بونابرت والإسلام

تمهيد

زار المؤرخ الفرنسي المعروف هنري لورنس القاهرة خلال الفترة من ٣ إلى ٩ مايو ١٩٩٧. ومساء الأربعاء ٧ مايو ألقى بالمركز الثقافي الفرنسي بالمنيرة محاضرة تحت عنوان: **بونابرت والإسلام**، كان قد انتهى من كتابتها في أول مايو ١٩٩٧ وتشكل استعادة وتوسيعاً لجوانب موضوع كان قد تناوله في كتابه المهم: **الحملة الفرنسية في مصر** الذي ترجمناه إلى العربية وصدر عام ١٩٩٥.

واستناداً إلى الوثائق التاريخية، يتتبع لورنس مواقف بونابرت من الإسلام وتصوره له، مبرزاً خاصية مهمة من خصائص البونابرتية هي المناورة بين مختلف الأديان والايديولوجيات، وذلك بقدر إلحاح الحاجة إلى مثل هذه المناورة.

وتكمن أهمية محاضرة لورنس في إبراز المشكلات الايديولوجية التي ترتبت على تجلي آخرية الشرق الإسلامي أمام الفاتح الفرنسي خلال حملته على مصر، وترصد سياسة الأخير التي تتميز، بين أمور أخرى، بالانتهازية وبالاحتيال في التعامل مع هذه الآخرية، كما تكشف المحاضرة عن المصادر التاريخية لهذه السياسة.

ويجد القارئ هنا ترجمة لمحاضرة لورنس كما يجد ترجمة لحكاية عربية كتبها بونابرت تحت عنوان: **قناع النبي** أشار إليها لورنس في محاضرته.

بشير السباعي

١٣/٥/١٩٩٧

بونابرت والإسلام(1)

ترتبط شخصية بونابرت نفسها ارتباطاً وثيقاً بالشرق. والحال أن كثيرين من المؤرخين والمعلقين قد حاولوا تفسير مختلف مراحل حياة الفاتح بحلم شرقي اعتبروه السبب الأساسي لمشاريعه المتعاقبة. إلاّ أنه قليلاً ما جرى السعي إلى توضيح الشرق النابليوني(٢).

ويتعين النظر بادئ ذي بدء في عنصرين أساسيين. فبالرغم من أن الهند كانت الهدف المعلن أو السري لعدة من مشاريع الفاتح الذي كثيراً ما استحضر ذكرى الإسكندر الأكبر (ولو بحكم سنه وحده)، فإن شرقه الواقعي، الشرق الذي كانت له به علاقات عديدة، هو شرق إسلامي أساساً، الدولة العثمانية و، بدرجة أقل، فارس. ومع كونه واحداً من أكثر الشخصيات التي عرفها التاريخ استثنائيةً، إلاّ أنه لم يكن بوسعه أن يخلق شيئاً من العدم. على العكس، إن الشرق النابليوني ربما كان أقوى تركيب لاستشراق عصره.

والواقع أن اتصاله الأول بالشرق إنما يمر عبر قراءاته في زمن شبابه. وجميع كتابات الفلاسفة، خاصة فولتير ومونتسكيو، بل وروسو، تتحدث عن الإسلام. وعلاوة على هذه المؤلفات العامة، فإننا نعرف أنه قد قرأ في عامي ١٧٨٨ و١٧٨٩ وعلق على كتاب **مذكرات حول الترك والتتر** للبارون دو توت الذي قدم له رؤية للعالم العثماني المعاصر وكتاب **تاريخ العرب** لماريني الذي، مع كونه عملاً توليفياً متوسط القيمة إلى حد بعيد، يعد بانوراما للتاريخ الإسلامي منذ البدايات الأولى وحتى القرن الثامن عشر. فما هو الدرس الذي تسنى له استخلاصه من كل هذه القراءات؟

شأنه شأن جميع معاصريه، كانت لدي بونابرت رؤية متناقضة عن الشرق. فهو، من جهة، يجد مجتمعاً متأخراً، متعثراً على طريق التقدم، ضحية للاستبداد. وهو، من جهة أخرى، يشعر أن الشرق هو الساحة الحقيقية التي يمكن فيها للرجل العظيم، الفاتح والمشرع، أن يحقق "مآثر عظيمة". وهذا التناقض، ليس غير تناقض ظاهري، لأن تأخر الشرق هو الذي يسمح بالفعل بالتحرر من عبء حضارة تعترض سبيل إرادات القوة في أوروبا.

وفي عام ١٧٨٩، في الحادية والعشرين من عمره، يكتب حكاية شرقية قصيرة، مستمدة من ماريني (الذي أخذ هو نفسه المعلومات الخاصة بها من إيربلو). وهذه الحكاية التي تحمل عنوان **قناع النبي**، هي حكاية تمرد ضد واحد من أوائل الخلفاء العباسيين قاده نبي كاذب اسمه ابن حكيم:

"إن ابن حكيم، الطويل القامة، والذي كان بليغاً بلاغة جازمة ونزقة، كان يزعم أنه رسول الله، وقد دعا إلى أخلاق طاهرة عزيزة على أفئدة الجماهير: فقد كانت المساواة في المكانات وفي الثروات هي الشعار الأساسي لخطبه. وقد انتظم الشعب تحت بيارقه، وكان لابن حكيم جيش".

ويضاعف البطل الخدع و"إعتمد أكثر من ذي قبل على هذيان الشعوب التي أثار حماستها، عندما أدت خسارة معركة إلى تخريب أعماله واختزال أنصاره وإضعاف إيمانهم".

ولما رأى هزيمته، انتحر بعد أن رتب اختفاء جثته وأقنع الناس بأنه رُفع إلى السماء. وخاتمة هذا النص القصير إنما تطلق العنان للأحلام:

"هذا المثال غريب لا يكاد يصدق، فإلى أي حد يمكن لجنون الشهرة أن يمضي؟"(٣).

وهذا النص نبوئي بشكل خاص: ففي اللحظة التي تنهض فيها الثورة يترجمها بونابرت إلى لغة إسلامية مشدداً على المساواة في المكانات أكثر من تشديده على الحرية بكثير، وذلك من أجل تحقيق مغامرة شخصية بشكل خالص. وهذا الاستخدام لقناعٍ إنما ينطوي على فكرة معينة عن السياسة الشرقية: فبوسع المرء دفع الجماهير المسلمة إلى الثورة إذا ما قدم نفسه إليها في صورة رسول لله وإذا ما تحرك في اتجاه طموحاتها الاجتماعية والقومية. وبوصفه وريثاً جيداً للتنوير، فإنه يرى أن الإسلام هو وليد طموح العرب القومي إلى الاتحاد وإلى فتح العالم: ومن ثم فإنه يستعيد الرؤية التي كان القرن الثامن عشر قد قدمها عن نبي الإسلام: إنه سائس عبقري للعبة الأهواء والمطامح. وهكذا يظهر الإسلام بوصفه تنظيماً

اجتماعياً ابتدعه مشرع لا نظير له وإن كان في الوقت نفسه بوصفه نتاجاً لثورات اجتماعية يجهلها المؤرخون السابقون.

وفي سانت هيلين، يُجرى بونابرت تناظراً بين زمن النبي وزمن الثورة الفرنسية. ولدينا عدة شهادات عن آراء نابليون. وشهادة المذكرات هي الشهادة الأكثر استحقاقاً للاهتمام(٤):

"أشار الإمبراطور إلى أن الرجال الذين غيروا العالم، لم يتوصلوا إلى ذلك عن طريق كسب الرؤساء وإنما، في جميع الحالات، عن طريق تحريك الجماهير. فالوسيلة الأولى تنتمي إلى حقل الدسائس، وهي لا تؤدي إلاّ إلى نتائج ثانوية؛ أما الوسيلة الثانية فهي تعبر عن مسيرة النبوغ وتبدل وجه العالم.

"ولذا فإن الإمبراطور، في انتقاله إلى الحديث عن الحقيقة التاريخية، قد أعرب عن شكه في كل ما نُسب إلى محمد. وقد قال أنه لا شك في أن ما ينسحب على جميع زعماء الشيع ينسحب عليه. والحال أن القرآن، الذي دون بعد ثلاثين سنة من موته، لابد أنه قد كرس الكثير من الأشياء التي نسبت إليه زوراً. فبعد أن أصبحت إمبراطورية النبي ومذهبه ورسالته وطيدة الأركان بالفعل، كان بالإمكان، وكان من اللازم أن يتماشى الكلام مع هذا الواقع. إلاّ أنه ما زال يتعين علينا أن نفسر كيف أن الحدث الهائل الذي نحن على يقين من حدوثه، وهو فتح العالم، قد تسنى حدوثه في مثل هذا الوقت جد القصير، إذ كانت خمسون أو ستون سنة كافية لحدوثه. ومن الذين حققوه؟ يقال لنا أنهم أقوام صحراوية، قليلة العدد، جاهلة، خبرتها العسكرية رديئة، ويعوزها الانضباط، كما يعوزها النظام. ومع ذلك فقد وقفت ضد العالم المتحضر، الثرى بالكثير من الإمكانات. هنا ما كان يمكن للهوس أن يكون كافياً، إذ كان تخلقه وتشكله يتطلب وقتاً، ولم يستغرق عمل محمد غير ثلاث عشرة سنة....

"ورأى الإمبراطور أنه بصرف النظر عن الظروف العارضة التي تؤدي أحياناً إلى معجزات، فلابد من أنه قد وُجد هنا أيضاً في الخلفية، شيء نجهله، مثلما أن أوروبا لا شك في أنها قد خضعت لنتائج سبب أول ما يزال خافياً علينا، ومن المحتمل أن تلك الأقوام التي خرجت مرة واحدة من قلب الصحراء قد شهدت حروباً أهلية طويلة، تشكلت خلالها شخصيات عظمى ومواهب كبرى ودوافع لا سبيل إلى مقاومتها أو أي سبب آخر من هذا النوع، الخ......"(٥).

أما نص برتران فهو يورد التدقيق التالي: "إذا كانت فرنسا قد نجحت في السيطرة على أوروبا، فإن مرجع ذلك إلى الثورة. ولا مراء في أنني أنا الذي توليت قيادتها [فرنسا]، لكنني فعلت ذلك مستفيداً من قوى"(٦).

أما نص جورجو فهو أبلغ تعبيراً: "إنه [محمد] مثلي، [.....] لقد كان هناك سأم من الفوضى، وكانت هناك رغبة في وضع حد لها. إنني ما كنت لأظهر لو كان من المرجح أن يجيء شخص آخر ويقوم بما قمت به. لقد كان بوسع فرنسا أن تنتهي إلى فتح العالم! إنني أكرر، إن أي إنسان لا يعدو أن يكون إنساناً. ووسائله لا طائل من ورائها إن لم تكن الظروف، إن لم يكن الرأي العام مؤيداً لها. إن الرأي العام يحكم كل شيء. هل تظنون أن لوثر هو الذي أتى بالإصلاح؟ كلا، إن الرأي العام هو الذي هب ضد البابوات [....].

"ثم يقرأ جلالته [مسرحية] محمد (لفولتير) ويجد فيها أبيات جميلة. لكننا، نحن المسلمين الآخرين، نود لو أنها كانت على مستوى أعلى من حيث الصدق التاريخي، لو أنها كانت لها نكهة عربية أكثر"(٧).

فهل الحكم الذي يجري إصداره بهذا الشكل على عصر النبي يمكن سحبه على شرق القرن الثامن عشر؟ هل هذا الشرق ثوري أو أن بالإمكان على الأقل رده إلى ميلاد جديد من أجل استخدامه وتوظيف الطاقة الثورية الكامنة في الإسلام؟ تلك هي المسألة الأساسية للرؤية النابليونية. ومن المؤكد، في نهاية القرن الثامن عشر هذه، أن المسألة الشرقية تظهر بوصفها الموضوع الأكثر أهمية بين شواغل السياسة الدولية. وبالنسبة للغالبية الساحقة من المعاصرين، فإن دورة الحروب بين الدولة العثمانية وروسيا، والتي بدأت في عام ١٧٦٨، لابد أن تنتهي بانهيار الأولى واقتسام أراضيها بين مختلف الدول. وآنذاك كان هناك موقفان ممكنان بالنسبة للمسئولين الفرنسيين، إمّا الدفاع عن الدولة العثمانية بالانكباب على إصلاحها، وذلك بإيلاء الأولوية لتكوين وحدات عسكرية وفق النموذج الأوروبي، أو المشاركة في السباق عبر تكوين إمبراطورية استعمارية جديدة تكون مصر محوراً لها.

ومن الواضح أن بونابرت الشاب على علم بهذه المناقشة التي تدور في الساحة العامة. وهو على علم بها بقدر ما أنه يدخل، اعتباراً من عام ١٧٩١، في علاقات وثيقة مع الفيلسوف المستشرق فولني الذي سوف يصبح أستاذه في الشئون الشرقية. ومن المؤكد أن فولني يتخذ موقفاً عميق العداوة للإسلام كما لكل ديانة أخرى، لكن المنظورات شبه النبوئية التي يرسمها لمستقبل الشرق من شأنها تماماً أن تلهب خيال الجندي الشاب الطموح.

والواقع أن الشرق العثماني إنما يجري تحليله وفقاً لمقولات العلم السياسي في القرن الثامن عشر. فمن المعروف أنه قد جرت مطابقة النبلاء الفرنسيين بأحفاد الفاتحين الجيرمان بينما كانت الفئة الثالثة تمثل الغاليين – الرومان المفتوحين. وهكذا فقد جرى تبرير الامتيازات الأرستقراطية بحق الفتح. وعند تطبيق هذا الكلام على الدولة العثمانية، فإننا نجد أنفسنا بإزاء أرستقراطية سائدة تركية تحكم فئة ثالثة حقيقية تتألف من شعوب عديدة: اليونانيين والسلاف والأرمن والعرب. وبينما يصبح الموقف ثورياً في الغرب، فإن الدولة العثمانية إنما تجد نفسها على أبواب ربيع حقيقي لشعوب ثائرة على الباب العالي بهدف تدشين سلسلة من الدول القومية. ويضيف فولني في عام ١٧٩١ الفكرة التي تذهب إلى أن فرنسا الثورية سوف يكون بوسعها توجيه هذه الحركة المفيدة لمجمل الجنس البشري. والحال أن جميع الفتن السياسية التي تهز الساحة العثمانية، في هذه النهاية للقرن، إنما تبدو كبراهين كثيرة على صدق هذا التحليل.

ويتبنى بونابرت موقف فولني الثوري مع رفضه لعداوته العميقة للإسلام. فبعيداً عن أن يصدق كالايديولوجي الفرنسي أن "النبي قد مات"، سوف يحاول الحلول محله. فهو سوف يكون إسكندراً أكبر على المستوى العسكري، وسوف يكون محمداً جديداً على المستوى السياسي. والتلاعب الضروري بالأذهان، من أجل تحقيق طموحه، إنما ينطوي بالضرورة على اعتماد معجم إسلامي. وهذا هو معنى إفضاءاته الشهيرة إلى مدام دو ريموزا في عهد القنصلية:

"في مصر، وجدت نفسي متحرراً من كوابح حضارة مزعجة. لقد كان بوسعي أن أحلم بكل شيء وأن أرى وسائل تحقيق كل ما حلمت به. فسوف أؤسس ديانة، وسأجد نفسي على طريق آسيا، راكباً فيلاً، وعلى رأسي عمامة وبين يدي قرآن جديد أؤلفه على هواي. وسوف أجمع في مشاريعي بين تجارب وخبرات العالمين، نابشاً لحسابي ملكوت جميع التواريخ والقصص، مهاجماً الجبروت الإنجليزي في الهند ومستعيداً بهذا الفتح ربط صلاتي مع أوروبا العجوز. لقد كان ذلك الوقت الذي قضيته في مصر أجمل أوقات عمري، لأنه كان الوقت الأكثر مثالية"(٨).

الأحلام وحقائق الواقع

إن موقفه بعيد عن أن يكون مجرداً. فهو موقف يستند إلى الإنصات الرهيف لآراء ولإيحاءات المتخصصين في الشأن الشرقي، خاصة الترجمان المستشرق الشهير، فينتور دو

بارادي. والتطور السياسي الأحدث للعالم العثماني ليس خافياً عليه. وهو على دراية برطانة العثمانيين السياسية الفعلية: فالثلث الأخير للقرن الثامن عشر، على أثر الحروب مع روسيا، إنما يشهد تطور أو بالأحرى إعادة تأكيد إسلام سياسي حقيقي. فمن جهة، سعياً إلى ضمان تلاحم الدولة وسعياً إلى ترك إنطباعات قوية لدى الدول الأوروبية، يعيد الباب العالي التأكيد بمهابة على السلطة الخليفية لسلطان القسطنطينية إلى درجة أن سليم الثالث، في المراسلات السياسية الرسمية لأوائل القرن التاسع عشر، يُسمى "إمبراطور المسلمين". ومن جهة أخرى، فإن انبعاث فكرة الخلافة إنما يترافق مع تشديد جديد على المبدأ الأساسي لكل سياسة إسلامية: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". ويكمن مغزى هذا المبدأ في أن كل سلطة إسلامية يتعين عليها أن تعمل على تأكيد احترام الشريعة الإسلامية وعلى أن تحترمها هي نفسها. والحال أن السلطات شبه المستقلة في الولايات، كمماليك مصر، إنما تضاعف المظالم على حساب السكان المدنيين، الأمر الذي يقود إلى تمردات لأجل صون الممتلكات والنفوس تجيزها الشريعة الإسلامية. وكما حدث في مصر في عام ١٧٨٧، فإن الباب العالي غالباً ما يشجع حركات التمردات الإسلامية هذه ضد السلطات المحلية التي تعتبر عدوة له. كما يجري دفع العلماء إلى تشكيل سلطات مضادة فعلية.

والواقع أن إحياء الادعاء الخليفي إنما يعمل من جديد على إدخال الدين الإسلامي إلى الساحة السياسية، خاصة في مجال العلاقات الدولية. وفي لحظة تبدأ فيها جماعات سكانية إسلامية في الانتقال تحت السيطرة الأوروبية (القرم، روسيا، الهند)، تبرز مسألة تنظيم هيراركيتها الدينية وتبعيتها لخلافة تتمايز سلطتها الدينية عن سلطنة سياسية وجغرافية بشكل خالص. وهنا يكمن تدشين فصل السياسي عن الديني. وفي ذلك العصر، إذا كان وعي الانتماء المشترك إلى "عالم إسلام" موجوداً بالفعل، فإنه لم يكن بالإمكان الحديث آنذاك عن "العالم الإسلامي" الذي سوف يتم انبثاقه في أواخر القرن التاسع عشر. وادعاء سلطان القسطنطينية الخلافة لا يمارس أثره إلاّ في داخل الساحة العثمانية وهو يستبعد ساحات الإسلام الأخرى، كالمغرب أو فارس أو وسط آسيا أو الهند(٩).

فهل الحملة الفرنسية على مصر مجرد مرحلة في مسيرة الفاتح أم أنها إرادة تحقيق حلم شرقي راود المخيلات منذ زمن بعيد؟ كما هي العادة عند بونابرت، يتعايش الحساب الأدق والأكثر واقعية لعلاقات القوة مع اتساع المشاريع الذي يساعد على تحقيقها. ومن ثم يمكننا القول بأن حلم بناء إمبراطورية شرقية كان موجوداً بالتأكيد إلاّ أنه لم يغب عن بصره قط

تطور فرنسا السياسي الداخلي وإمكانيات الاستيلاء على السلطة في باريس. وبراجماتيته الصارخة ماثلة دائماً لكي تذكره بأنه يجب التمكن من اغتنام الفرص التي تظهر ووضع العقبات التي تعترض سبيله في الحسبان.

وفي الحدث المصري، لابد من أن ننسب إلى بونابرت الفضل في الدمج المثير بين خطابه الثوري والرطانة السياسية الإسلامية في بياناته الموجهة إلى المصريين. فهو يمحور دعايته على واقع أن الفرنسيين هم أعداء الكاثوليك وبابا روما وعلى واقع أن الفرنسيين قد طردوا هذا الأخير من عاصمته وقضوا على أخوية فرسان مالطة أعداء المسلمين.

والحال أن المسلمين المصريين، الذين أربكتهم سرعة الفتح، قد صدقوا بالفعل أن الفرنسيين قد تصرفوا بتفويض من الباب العالي. وكان برنامج القضاء على مظالم المماليك واحداً من أكثر البرامج شعبية. أما ربط العلماء بالسلطة فقد كان يتماشى مع التعزيز السياسي لهذا الفريق الذي كان واحداً من محركي التجديد الإسلامي المعاصر، ولم يتردد الجنرال الفرنسي في إعلان تفوق الشريعة الإسلامية:

"أرجو ألاَّ تتأخر اللحظة التي يتسنى لي فيها جمع كل الرجال الحكماء والمثقفين في البلاد، وإقامة نظام متسق، قائم على مبادئ القرآن، وهي المبادئ الصحيحة الوحيدة، والقادرة وحدها على تحقيق سعادة البشر"(١٠).

إلاَّ إنه بعد ذلك بثلاث سنوات، في عام ١٨٠٢، سوف يبلغ بونابرت هذا نفسه مخاطبه المسلم نفسه بأنه قد أعاد الدين (الكاثوليكي) إلى فرنسا (١١).

وهذا الموقف لا يدوم طويلاً. فالسكان يفيقون بسرعة من صدمة الفتح؛ والجيش الفرنسي يعوزه المال، الأمر الذي يجبره على مضاعفة تدابير فرض الضرائب، بما يجعل كل محاولة للقضاء على المظالم محاولة وهمية؛ والباب العالي يضطلع بحرب دعائية مثيرة تفضح، في الحملة على مصر، خطة للقضاء على الإسلام وإبادة المسلمين؛ ويجرى النظر إلى الفرنسيين كبرابرة لا يحترمون قواعد الحضارة الإسلامية (خاصة فيما يتعلق بنظافة الجسم) ولا يترددون في انتهاك خصوصية العائلات لأجل أسباب واعتبارات أمنية (نزع أبواب الأحياء والشوارع) ولأجل اعتبارات ضريبية (إحصاء الممتلكات) ولأجل اعتبارات مكافحة الطاعون (تفتيش البيوت بشكل خاص). والحال أن ثورة القاهرة الأولى في أواخر أكتوبر ١٧٩٨ إنما ترمز إلى الطلاق بين الفاتحين والمفتوحين.

السياسة الإسلامية

إن الاستعماريين الفرنسيين في النصف الأول من القرن العشرين سوف يجعلون من بونابرت الرائد العظيم لسياسة فرنسا الإسلامية. وكان بوسع فرانسوا شارل رو أن يكتب في عام ١٩٣٦:

"لا يعود إلاّ إلى بونابرت، منذ أول اتصال لفرنسا مع أفريقيا الشمالية ومع الإسلام، إعطاء نموذج جد ناجز لسياسة تجاه الأهالي ولسياسة دينية جديدتين تماماً، ومدفوعتين مرة واحدة إلى آفاق نادراً ما جرى بلوغها منذ ذلك الحين، و، في جميع الأحوال، لم يتم تخطيها قط"(١٢).

فكل شيء موجود عنده: سياسة مراعاة تجاه المؤسسات الإسلامية، ربط السلطات الأهلية بالسيطرة الفرنسية في إطار احترام دقيق لسلطاتها، تكوين مدينة أوروبية قرب المدينة الأهلية، تجنيد جنود من الأهالي يقودهم ضباط فرنسيون وتكوين "قوة سوداء" (من السودانيين) لسد العجز في الجنود الأوروبيين. وتضاف إلى تيمة الربط الأولى هذه تيمة الاستيعاب. وقد ارتأى بونابرت، في حالة دوام فتحه، سياسة ثقافية قوامها التغريب – الفرنسة.

ونحن نجد هذه الأفكار في رسالة بونابرت إلى كليبر بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ عند نقل قيادة جيش الحملة إلى الأخير.

سياسة المراعاة:

"تعرف، أيها المواطن الجنرال، أسلوبي في النظر إلى سياسة مصر الداخلية. فمن بين الأمور التي يجب أن تضطلع بها أن يكون المسيحيون أصدقاء دائمين لنا. إلاّ أنه لا يجب ترك الحبل على الغارب لهم، حتى لا يبدي الأتراك ضدنا عين التعصب الذي يبدونه ضد المسيحيين، فهذا من شأنه أن يجعلهم غير متصالحين معنا. وتجب إنامة التعصب ترقباً للحظة التي يتسنى فيها استئصاله. ونحن بكسب رأى كبار مشايخ القاهرة، نكسب مصر كلها وجميع الزعماء الذين قد يكونون لدى هذا الشعب. وليس هناك من هو أخطر علينا من مشايخ خوافين لا يعرفون القتال، لكنهم، كجميع الكهنة، يلهمون التعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين".

فرنسة النخب:

"حاول أن تجمع خمسمائة أو ستمائة مملوك تتولى، عند وصول السفن الفرنسية، احتجازهم يوماً ما من القاهرة أو من أقاليم أخرى وترحيلهم إلى فرنسا. وإذا لم تجد مماليك، فخذ رهائن من العرب(١٣)، أو من مشايخ البلد(١٤) الذين، تحت دعوى أو أخرى، سوف يجدون أنفسهم محتجزين، ويمكنهم أن يكونوا بديلاً عنهم [عن المماليك]. إن هؤلاء الأفراد، عند وصولهم إلى فرنسا، سوف يجري إيقاؤهم فيها سنة أو سنتين، وسوف يرون عظمة الأمة، ويتبنون عاداتنا ولغتنا، ولدى عودتهم إلى مصر، سوف يساعدون على تكوين عدد كبير من الأنصار لنا".

الفعل الثقافي:

"لقد طلبت بالفعل عدة مرات فرقة ممثلين؛ وسوف أحرص بشكل خاص على إرسال فرقة إليك. فهذا الموضوع جد مهم بالنسبة للجيش وبالنسبة للبدء في تغيير عادات البلد".

أهمية الرهانات:

""إن أهمية ما يجرى هنا حيوية، وسوف تكون النتائج المترتبة عليه ضخمة بالنسبة للتجارة وللحضارة؛ سيكون ذلك هو العصر الذي سوف تؤرخ به ثورات عظمى"(١٥).

وككل سياسة إسلامية، فإننا نجد أنفسنا في الواقع بين قطبين، قطب الربط وقطب الاستيعاب. ومن الواضح تماماً أن أشهر بونابرت الثلاثة عشر وأيامه العشرين في مصر، لم تسمح له بالبت في جدل سوف يعجز مواصلوه في القرن العشرين عن حله.

التلاعب بالإسلام واحتيال بونابرت

ليس بونابرت مجرد رائد لليوتي. وإذا كان يجالس العلماء ويسألهم عن ديانتهم، إلاَّ أنه يسعى في الوقت نفسه إلى أن يصور نفسه أمامهم في صورة مهدي منتظر حقيقي للمسلمين. بل إنه يعلن ذلك بنفسه أمام سكان القاهرة:

"العاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة. وأعلموا أيضاً أمتكم أن الله قدر في الأزل بعد ذلك أن أجئ من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وأجرا الأمر الذي أمرت به ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه. وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخر إلى أمور تقع في المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف.

"[....] واعلموا أيضاً أني أقدر على إظهار ما في نفس كل واحد منكم لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أنني كلما فعلته وحكمت به فهو حكم إلاهي لا يرد وأن اجتهاد الإنسان بغاية جهده ما يمنعني عن قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي، فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم معي مع صفا النية والسريرة"(١٦).

وهذا النوع من المشاهد، حيث يزاوج الجنرال بين عبادته الشخصية للقدر والحظ والدين الإسلامي كما يتصوره، إنما يميل إلى التزايد، لكن مستمعيه يظلون سلبيين، باستثناء الشيخ المهدي الأريب الرائع الذي يعرف كيف يغازل أهواء القائد العام سعياً إلى الفوز بتحسينات لأحوال السكان المصريين. بل ويبدو تماماً أن بونابرت يفكر في إحدى اللحظات في تحويل جيشه إلى اعتناق الإسلام، لكنه يتخلى عن ذلك، على الأقل مؤقتاً. والمذكرات تقدم لنا شهادة جيدة عن أفكاره:

"أضاف في مرح، وعلى أية حال، لا يرجع ذلك إلى أنه كان من المستحيل أن تدفعني الظروف إلى اعتناق الإسلام، وكما قالت تلك الملكة الفرنسية الطيبة: سوف تحكي لي عن ذلك حكايات كثيرة... لكن ذلك ما كان له أن يكون دون توافر ضمانات جيدة؛ وكان يلزمني لذلك أن أصل إلى الفرات على الأقل. إن تغيير الدين، الذي لا يمكن اغتفاره من زاوية الاعتبارات الشخصية، قد يجوز تفهمه من زاوية ضخامة آثاره السياسية. وقد أحسن هنري الرابع الفهم حين قال: إن باريس تستحق أن يذهب المرء إلى قداس. فهل يمكن الاعتقاد بأن مُلك الشرق وربما إخضاع آسيا كلها لا يستحقان أن يرتدي المرء عمامة وسراويل [شرقية]؟ فالمسألة كانت تنحصر في ذلك وحده بالفعل. وقد اجتهد كبار المشايخ في إحراجنا وذللوا صعوبات كبرى؛ فقد سمحوا لنا بشرب الخمر وأعفونا من كل الشكليات الجسمانية؛ ومن ثم فإننا لم نكن سنخسر سوى كيلوتاتنا وقبعة.

"أقول نحن، لأن الجيش، في الحالة التي كان عليها، كان مستعداً لذلك دون شك، ولم يجد في ذلك غير مادة للضحك وللتفكه، ومن ثم يجب أن تتأملوا الظروف. كنت سآخذ أوروبا من الخلف، كانت الحضارة الأوروبية العجوز ستجد نفسها محاصرة، ومن الذي كان سوف يفكر آنذاك في إرباك مسيرة مصائر فرنسانا أو مسيرة مصائر إحياء العصر؟"(١٧).

والإفضاء الذي أدلى به للاس كاسيس إنما يجد تأكيداً له في الاجتماع العسكري الشهير عشية معركة أوسترليتز، في الأول من ديسمبر ١٨٠٥، والذي نملك عنه شهادتين، هما شهادة سيجور وشهادة تيار(١٨):

"قال نابليون، أجل، لو كنت استوليت على عكا، للبست العمامة، ولأمرت بأن يرتدي جيشي سراويل [شرقية] فضفاضة لكنني ما كنت لأعرضه لذلك إلاّ إذا تطلبت ذلك الضرورة القصوى؛ كنت سأجعل منه لواء مقدساً، خالدينى! كنت سأنجز الحرب ضد الترك اعتماداً على عرب ويونانيين وأرمن! وبدلاً من معركة في مورافيا، كنت سأكسب معركة في إيسوس، وكنت سأجعل من نفسي إمبراطوراً للشرق، وكنت سأعود إلى باريس عن طريق القسطنطينية!".

الرواية الثانية:

"كنت عازماً، في حالة استسلام عكا، على أن ألبس جنودي زياً شرقياً وأن يتبنوا، في الظاهر على الأقل، ديانة البلد، الأمر الذي كان سيروق للجنود كثيراً؛ وكنت سأجعل منهم سلاح خالدينى؛ وما كان ذلك وارداً إلاّ في حالات الضرورة المطلقة. وكنت سأستولي على البلد بمائة ألف من الدروز والأقباط والأقوام الأخرى المسلمة أو المسيحية في الشام. كنت سأنظمهم وفق النموذج الفرنسي، وكان سيكون بالإمكان العثور على ضباط بين صفوف الأوروبيين المستقرين على الساحل. ومن جهة أخرى، فإن عدداً من جنودنا كانوا قد بدأوا في تفهم ذلك. كنت سأزحف على القسطنطينية، وكنت سأستولي عليها وكنت سأغير وجه الشرق، وربما وجه العالم".

وقد استمرت هذه الحماسة حتى فشل حصار عكا. فمنذ تلك اللحظة، يأخذ بونابرت في حسبانه أن مغامرته الشرقية قد انتهت وأن أوروبا هي ساحة قدره. ومنذ ذلك الحين يخبو اهتمامه بالإسلام بشكل ملحوظ. وفي سانت هيلين، سوف يصرح بذلك لبرتران:

"عندما مات فينتور في مصر، كان ذلك خسارة كبيرة بالنسبة لي. ولم أعد أتحدث مع الأتراك بالاهتمام نفسه. وقد قال لي المشايخ "إننا لم نعد نفهمك. مع فينتور كان كل ما تقوله يثير الخيال ويذهلنا. والآن مازلنا نفهم، لكن الأمر لم يعد كما كان عليه"؛ ولم يكن بالإمكان بعد تقريباً إجراء مناقشات عن القرآن"(١٩).

وفي **المذكرات**، يؤكد أن بياناته إلى المسلمين لم تكن غير احتيال:

"ثم انتقل إلى الحديث عن بيانات مصر وتهكم كثيراً على البيان الذي قدم نفسه فيه في صورة ملهم ورسول من الله يتلقى الوحي عنه. وقال إن هذا كان احتيالاً، لكنه احتيال من أعلى طراز. ومن جهة أخرى، فإن ذلك لم يكن إلاّ لأجل ترجمته إلى أبيات عربية جميلة وعلى يد واحد من أذكى مشايخهم(٢٠). وقال إن الفرنسيين الذين كانوا معي لم يجدوا في ذلك غير مادة للضحك، وكانت استعداداتهم في هذا الصدد من الفتور بحيث إنني، في إيطاليا وفي مصر، سعياً مني إلى التمكن من إرجاعهم إلى سماع الحديث عن الدين، كنت مضطراً إلى أن أتحدث عنه باستخفاف شديد أنا نفسي، وإلى أن أضع اليهود جنب المسيحيين والحاخامات جنب الأساقفة"(٢١).

ويمكننا تصور أن الواقع أكثر تعقيداً من ذلك وأنه كان مفتوناً بالفعل بالإسلام وبالشرق. فالمهدية التي حاول استحداثها لحسابه إنما تتماشى تماماً مع مناخ نهاية الزمان الذي يرافق الثورة الفرنسية والذي يمس جميع الديانات القائلة بالتوحيد. وقد سمحت له قوة شخصيته بأن يصدق بأنه في آن واحد المخلص الذي ينتظره البعض والمسيح الدجال الذي يرهبه البعض الآخر.

الإمبراطور

بعد أن أصبح نابليون إمبراطوراً، يتخلى تماماً عن مشاريعه الشرقية. والزحف على الهند هو مشروع تجرى استعادته بصورة منتظمة في الفترة الممتدة من زمن معركة أوسترليتز إلى زمن بداية حملة أسبانيا. وكل ما هنالك هو أنه لن يقود هذا الزحف بشكل مباشر. ثم إن الحملة على مصر قد أدت إلى عدد معين من الدروس: إذا كانت الجيوش العثمانية جد هشة في المعارك المكشوفة فإنها قادرة على أن تشكل موانع رهيبة في حروب الحصار في حين أن مقاومة السكان الإيجابية والسلبية تتطلب سنوات طويلة من تدابير التهدئة. وعندئذ، لا يصبح المشروع ممكناً إلاّ بالتعاون مع الدولة العثمانية وفارس ومن هنا المفاوضات مع الدولتين في عامي ١٨٠٦ و١٨٠٧.

وفي هذا المنظور، يضطلع نابليون بتأسيس ائتلاف إسلامي ضد روسيا وإنجلترا. ورسائله إلى سليم الأول هي إستنفارات للمسلمين إلى النضال ضد روسيا:

"لقد حانت لحظة رد الدولة العثمانية إلى عظمتها السابقة. ولم يعد بالإمكان تفويت لحظة. إن حدودكم تتعرض للغزو. فلتدعوا جميع رعاياكم المخلصين إلى الدفاع عن أعز ما يملكون. إن مدنكم ومساجدكم، بل وحتى الاسم المسلم، هي ما يريد الروس القضاء عليه،

ومشاريع أعدائكم تجبركم على دحرهم. إنني أدعو الله أن يبارك جيوشكم وأن يطيل أيام عظمتكم وأن يسبغ عليها المجد والرفاه، ويجعلها مشمولة بخاتمة جد ميمونة وسعيدة"(٢٢).

ونحن بازاء عمل سياسي انتهازي تماماً. لكن الدبلوماسية العثمانية إنما تدار بالبراجماتية نفسها. وفي جميع الإئتلافات التي تتعاقب منذ عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨١٥، سوف ينجح الباب العالي في وضع نفسه في المعسكر الظافر، مدرجاً نفسه بذلك في ساحة التوازن الأوروبي المتحركة(٢٣).

ولا يخاطب نابليون الملوك وحدهم، بل يخاطب الشعب المسلم أيضاً. وفي عام ١٨٠٧، يجري تدشين حملة كبرى لتوزيع المنشورات في البلقان سعياً إلى إضفاء طابع شعبي على الحرب ضد روسيا:

"فلتعمل على ترجمة جَميع منشورات الجيش العظيم خلال هذه الحملة والحملة الأخيرة إلى التركية وإلى العربية، ولتتول إرسالها لتوزيعها على نطاق واسع في القسطنطينية. إطبع منها ستة آلاف نسخة. ولتعمل على صدور كراس صغير من عشر صفحات مكتوب بشكل جيد، تشرف بنفسك على إعداده وتعنونه بـ: **من شيخ عثماني إلى اخوته**. سوف يكون ذلك عبارة عن نداء ضد الروس، لوحة ترسم معالم سياستهم ومعالم النتيجة التي يريدون التوصل إليها. وسوف تعمل على أن تُطبع منه عشرة آلاف نسخة باللغتين نفسيهما. إلاّ أنه لابد لذلك من أن يتم في غضون ثمانية أيام. وسوف ترسل ألفاً منها إلى الوالي الذي سوف يعمل على نقلها إلى دالماتيا، وسوف ترسل ألفاً أخرى إلى وزيري في القسطنطينية، وألفاً إلى وزيري في فيينا، كما سوف ترسل إليّ ألف نسخة. وعندما يتم تحرير العمل، إعرضه بشكل غير مباشر على السفير التركي، لمعرفة رأيه فيه ولمعرفة ما إذا كان قد تم تحريره بشكل جيد"(٢٤).

لكن الأسلوب النابليوني لا يلقى مع ذلك عند مسلمي البلقان نجاحاً أكبر من النجاح الذي لقيه عند مسلمي مصر قبل ذلك ببضع سنوات، كما تشهد على ذلك مذكرات بيير ديفيد، القنصل في البوسنة في ذلك العصر:

"لا أدري أي مستشرق في باريس، يعرف لغات وليس شعوب شرقي البحر المتوسط، تصور أن بوسعه أن يكتب للترك موعظة سياسية جميلة لأجل أخوتهم في الدين سعياً إلى حثهم على الحرب ضد الروس، وكيف تمتع بكل هذا الحظ بحيث تسنى للحكومة تبني فكرته. لقد تلقى الجنرال مارمون رزماً من هذا المطبوع، الذي صحبته منشورات

أوسترليتز مترجمة إلى التركية. وقد كلفني بتوزيع هذه المطبوعات في حلب وترحالي. وكان عليّ بوجه خاص أن أسلم عدة نسخ إلى الباشا. وقد قمت بهذا التوزيع بدءاً بالبنادر الأولى حيث وجدت عثمانيين يعرفون القراءة، وهو أمر غير شائع. فما أشد ما كانت دهشتي عندما رأيت قلة أثر هذه المناشدات عليهم. لقد كانوا يقرأون بفتور، وعندما كانوا ينتهون من القراءة، كانوا يطرحون الكراس جانباً دون أن تند عنهم كلمة واحدة ومبدين اللامبالاة الأتم"(٢٥).

وتؤدي المصالحة الفرنسية – الروسية إلى فشل سياسة نابليون الإسلامية الأخيرة. وسوف يحاول مرة أخرى في عام ١٨١٢ جر العثمانيين إلى الحرب ضد روسيا، لكن العثمانيين سوف ينجحون بحكمتهم في تجنب ذلك.

المؤسسات الإسلامية

إن اهتمام نابليون بالإسلام وبالمسلمين كان من ثم يستلهم بالكامل شواغل سياسية لكنه، في جميع كتاباته وأقواله، لا يبدو قط معادياً للإسلام؛ على العكس، لقد تولى غالباً الدفاع عن مؤسسات الإسلام الاجتماعية، وتناوله لتعدد الزوجات بالغ الدلالة في هذا الصدد. وصحيح أننا بإزاء هزل صالونات في سانت هيلين، حيث يجد متعة في استفزاز مستمعاته مع إضفاء الوقار على النص الموجه إلى النشر الرسمي(٢٦). على أن أقواله تختلف اختلافاً بيناً عن التفكير السائد في عصره. ووفقاً له، لا يوجد في نهاية الأمر غير شعبين، الشرقيين والغربيين.

"قال إن الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين، الخ، لا يؤلفون غير عائلة واحدة، هي عائلة الغربيين: فهم لهم قوانين واحدة وعادات واحدة وأعراف واحدة؛ وهم يختلفون تماماً عن الشرقيين، خاصة في علاقتيهما الرئيسيتين بنسائهم وبخدمهم: فالشرقيون لهم عبيد، وخدمنا أحرار؛ والشرقيون يحذرون من حرية حركة النساء، في حين أن نساءنا يشاطرننا جميع حقوقنا؛ ولديهم سراي للحريم، في حين أن تعدد الزوجات لم يكن مسموحاً به في الغرب في أي وقت من الأوقات. ولاحظ الإمبراطور أن هناك حشداً من التباينات الأخرى؛ وقال إنها تصل إلى ثمانين تبايناً؛ وقال إنهما شعبان مختلفان بالفعل".

وكل شيء في الغرب يجبر الرجال على الاعتماد على زوجاتهم: فلابد للرجل من أن تكون له مهنة ومن ثم لابد له من أن يغيب عن بيته الأمر الذي يعني أن تكون له ثقة عمياء في شرف النساء:

"وقال مرحاً، بالنسبة لي، كانت لي زوجات وعشيقات، ولم تخطر قط ببالي فكرة فرض رقابة خاصة عليهن، لأنني كنت أعتقد أنه لا طائل من وراء هذا التحسب مثلما أنه لا طائل من وراء التحسب للطعنات وللسم في موقف معين؛ وعذاب التحسبات يفوق كثيراً الخطر الذي يود المرء درءه؛ ومن الأوفق أن يستسلم المرء لقدره".

ويبدو أن الرجال والنساء راضون على حد سواء في كل من الشرق والغرب:

"كل شيء عُرفٌ بين البشر، حتى المشاعر التي يبدو أنها لا يجب أن تجيء إلاّ من الطبيعة؛ ثم إن هؤلاء النساء لهن أيضاً حقوقهن هناك كنسائنا عندنا. إذ لا يمكن للمرء منعهن من الذهاب إلى الحمامات العامة، مثلما لا يمكن للمرء منع النساء عندنا من الذهاب إلى الكنيسة؛ والأوليات يستن استغلال ذلك شأنهن في ذلك شأن الأخيرات. وهكذا ترون أن الجنس البشري وخياله ومشاعره وفضائله وعيوبه إنما تدور في حلقة جد ضيقة. وكل هذا يتواجد هو هو في كل مكان، مع فروق جد طفيفة".

وتعدد الزوجات الشرقي كواحدية الزوجة الغربية موجود منذ البدايات. إلاّ أنه لا يوجد سبب فيزيقي وراء ذلك. وفي هذا، يتعارض نابليون مع مونتسكيو. إنها مسألة تنظيم اجتماعي:

"وذلك ببساطة تامة لأن المشرع، أو الحكمة الآتية من أعلى والتي تقوم مقامه، لابد وأنه كان مدفوعاً بقوة الأشياء المستمدة من كل من المكانين. إن الغربيين لهم شكل واحد ولون واحد؛ وهم لا يؤلفون غير شعب واحد، عائلة واحدة؛ ولذا كان وارداً، كما في لحظة الخلق، أن لا تخصص لهم غير زوجة واحدة".

وخلافاً لذلك، فإن الشرقيين يختلفون فيما بينهم في أشكالهم وألوانهم: بيض وسود ونحاسيون ومخلطون:

"كان لابد لهم، قبل كل شيء، أن يفكروا في بقائهم، في أن يوجدوا فيما بينهم أخوة قائمة على امتزاج الدم، حتى لا يتبادلوا فيما بينهم الإبادة والاضطهاد والقهر إلى الأبد، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلاّ بإيجاد تعدد الزوجات، وبإتاحة إمكانية الحصول في آن واحد على زوجة بيضاء وزوجة سوداء وثالثة خلاسية ورابعة نحاسية".

وهكذا يبدو محمد من جديد، بما يتماشى مع تراث فكر التنوير، بوصفه المهندس الاجتماعي العظيم:

"أضاف، أنه يبدو أن محمداً قد عرف السر وأنه قد كيف نفسه معــه، وإلاَّ، فما الذي دفع ذلك الذي مشى على مقربة شديدة من آثار المسيحية، ولم يبتعد عنها إلاَّ ابتعاداً طفيفاً، إلى الامتناع عن إلغاء تعدد الزوجات؟ سوف يقال إنه لم يُبق عليه إلاَّ لأن ديانته كانت حسية تماماً؛ لكنه كان بوسعه عندئذ أن يسمح للمسلمين بعدد لا نهائي من الزوجات، بينما هو لم يسمح إلاَّ بأربع زوجات فقط، وهو ما قد يعني بيضاء وسوداء ونحاسية ومخلطة".

وهو يعلن بعد ذلك مباشرة أن تعدد الزوجات لا يخص غير الطبقات العليا من المجتمع، لكن هذا يعد كافياً لتأمين اتحاد الجميع ومساواتهم التامة. وهو ينهي كلامه بالتأكيد على أنه قد نظر في تطبيق هذا المبدأ على المستعمرات "للموائمة بين سعادة الزنوج وضرورة تشغيلهم". ومن ثم فإن إعجابه بالإسلام إنما يتصل أساساً بهذا الخالق للمجتمعات الذي هو النبي.

وتتصل مقارنته الأخيرة بديانتي الشرق: فالمسيحية هي ديانة **روحانية** يهيمن عليها العقاب في حين أن ديانة محمد ديانة **حسية** تماماً يهيمن عليها الثواب. ومن ثم نجد أنفسنا بازاء ديانة خوف وتهديد وديانة وعد وإغراء. وفي **المذكرات**، لا يستخلص من ذلك استنتاجاً(٢٧). أما في **حملتنا مصر والشام**(٢٨)، فإن روحانية المسيحية إنما يجرى إرجاعها إلى تراث المفكرين الإغريق: فالديانة المسيحية قد "ولدت في المدارس الإغريقية، وهي ترمز إلى انتصار أمثال سقراط وأفلاطون وأرستيد على أمثال فلامينيوس وسكيبيون وبول إميل". أما حسية الإسلام فهي لازمة مترتبة على الحالة الاجتماعية لبلاد العرب وعلى جدل العلاقات بين النبي والعرب:

"لقد كان يخاطب أقواماً متوحشة، فقيرة، محرومة من كل شيء، وجاهلة إلى حد بعيد؛ ولو أنه خاطب عقولهم، لما استمع إليه أحد. ووسط ثراء ووفرة كل شيء في اليونان، كانت مسرات التأمل العقلي تمثل حاجة؛ أما وسط الصحراء حيث يتوق العربي بلا توقف إلى مصدر ماء وإلى ظل نخلة يمكن أن يجعله في حمى من أشعة شمس خط الاستواء الحارقة، فقد كان من الضروري وعد المختارين، كثواب لهم، بأنهار لا تنفد من اللبن وبمروج زكية العطر، حيث يستريحون في الظل الأبدي، في أحضان حوريات سماويات، بيض البشرة، سود العيون. وقد تحرق البدو إلى مقام على هذه الدرجة الكبرى من الجاذبية والفتنة: وقد عرضوا أنفسهم لكل شيء في سبيل الوصول إليه: وأصبحوا أبطالاً".

وهكذا فإن المسيحية هي نتاج تطور قديم للوعي الإنساني، وهي "مذهب يأسر الألباب ويقنع، ولا يمكن لشيء أن يوقف مسيرته"، في حين أن الإسلام، شأنه في ذلك شأن اليهودية، إنما يدين بكل شيء إلى زمن بداياته:

"كان يسوع المسيح مبشراً، وقد منح رسله موهبة حسن التعبير. أما موسى ومحمد فقد كانا زعيمي شعبين طرحا شرائع وساسا أمور العالم".

وهذه التحليلات ليست شائعة البتة في ذلك الزمن كما في أزمنة أخرى. ويرصد لاس كاسيس ذلك:

"الخلاصة أن نابليون، فيما يتعلق بشئون الشرق، قد ابتعد كثيراً عن المعتقدات الشائعة، المستمدة من كتبنا المعتادة وكانت له في هذا الصدد نظرات أصيلة بالكامل، وقد قال إنها ليست قاطعة تماماً؛ والحال أن تجربته في مصر هي التي أدت إلى هذا الأثر في فكره"(٢٩).

دين نابليون

يجب مقارنة هذا الموقف بهجماته العديدة على البربرية الروسية وبعداوته الملحوظة تجاه اليهود. وإذا كان منذ الاتفاق التصالحي [مع الكنيسة الكاثوليكية] وحتى موته قد صور نفسه من الناحية الظاهرية في صورة مؤمن بالديانة الكاثوليكية الرسولية والرومانية التي ولد عليها(٣٠)، فإنه يظل مع ذلك رجلاً من رجال التنوير يناصر الفصل الصارم بين الدين والسياسة، في أوروبا على الأقل.

"كنت أود من جهة أخرى تأكيد حرية العقيدة بشكل شامل. وقد تمثلت سياستي في أن لا تكون هناك البتة ديانة سائدة، بل أن تكون هناك حرية مطلقة للعقيدة وللفكر، وأن يكون كل الناس متساوين، أكانوا بروتستانت أم كاثوليك أم محمديين أم مؤلهين لا دينيين، الخ، بحيث لا يمكن أن يكون للدين من دور في توزيع وظائف الحكومة؛ وأخيراً، بحيث لا يمكن له لا أن يكون خادماً لهم ولا أن يكون مصدر إيذاء لهم، وبحيث لا يمكن بروز أية عقبة، أساسها الدين، أمام حصول إنسان على وظيفة، لو كان أهلاً لها من جهة أخرى. لقد جعلت كل شيء مستقلاً عن الدين. وكذلك كانت المحاكم كلها. وكان بوسع المرء أن يتزوج دون اللجوء إلى الكهنة، بل إن الجبانات نفسها لم تكن من اختصاصهم، إذ لم يكن بوسعهم رفض دفن إنسان، مهما كانت ديانته. وقد تمثل تصوري في أن أجعل مدنياً بشكل خالص كل ما ينتمي إلى الدولة وإلى الدستور، بصرف النظر عن أية عبادة أو ديانة. وكنت أريد تجريد الكهنة من كل نفوذ

كما من كل سلطة في الشئون المدنية وإرغامهم على الاقتصار على أمورهم الروحية دون اختلاط بالأمور الأخرى"(٣١).

والواقع أن ميله العميق إنما يدفعه إلى التأليه اللاديني. وهو يعترف بذلك في المذكرات:

"كنت بحاجة إلى الإيمان، وقد آمنت، لكن إيماني قد اهتز وأصبح غير واثق منذ بدايات تكون الوعي عندي، منذ بدايات بلوغي سن الرشد والتفكير؛ وقد حدث هذا لي في لحظة جد سعيدة، هي لحظة الثالثة عشرة من العمر. وربما أعاود الإيمان من جديد إيماناً أعمى، إن شاء الله! ومن المؤكد أنني لن أقاوم ذلك، فأنا لا أرجو شيئاً أفضل من هذا؛ وأنا أعتقد أن ذلك لابد وأن يكون مصدر سعادة كبرى وصداقة لي.

"إلاّ أنه، في العواصف الكبرى، في إيحاءات الانحلال الأخلاقي العرضية، فإنني أؤكد أن هذا الانعدام للإيمان الديني لم يؤثر علّي قط بأي شكل، والواقع أنني لم أشك في الله قط؛ لأنه، إذا كان عقلي لم يكن كافياً لهدايتي، فإن مصلحتي ما كان لها أن تصرفني عن الإيمان به على أية حال. وقد كانت خلجاتي متوائمة مع هذا الشعور"(٣٢).

وضمن هذا المنظور بالتحديد، يجب لنا أن نفهم تصريحه الشهير لشاتوبريان:

"تعامل بونابرت معي ببساطة، دون أن يجاملني، ودون توجيه أسئلة عديمة الجدوى، وحدثني فوراً عن مصر وعن العرب، كما لو كنت صديقاً حميماً له، وكما لو أنه لا يفعل سوى مواصلة حديث بدأ بالفعل بيننا. قال لي: لقد انتابني الذهول دائماً عندما كنت أرى الشيوخ يسجدون وسط الصحراء، وييممون وجوههم قبلة الشرق ويمسون الرمل بالجبين. ما هو هذا الشيء المجهول الذي كانوا يسجدون له قبلة الشرق؟".

وفي تتمة النص(٣٣)، يهاجم القنصل الأول الايديولوجيين الذين ارتأوا القدرة على إحالة المسيحية إلى نسق فلكي:

"عندما يحدث ذلك، هل يعتقدون أنهم سوف يكون بوسعهم إقناعي بأن المسيحية تافهة؟ إذا كانت المسيحية مجازاً لحركة الأفلاك، إذا كانت هندسة نجوم، فإن مفكريها الجبابرة قد أحسنوا صنعاً، فهم بالرغم منهم قد خلّفوا ما يكفي من العظمة للخسة".

وغالباً ما يتخذ هذا الإيمان بالله عنده شكل إيمان بالقدر وبالحظ. ولم يكن لديه ما يكفي من الروحانية لكي يمارس بإخلاص ديانة ما، إلاّ أنه كان عنده ما يكفي من هذه الروحانية لكي لا يشعر بنفور صارخ من الإسلام. ويبدو تماماً أن هذه الديانة قد مارست عليه

جاذبية حقيقية، ولكن ضمن منظور نابليوني بشكل صارم: الإيمان بإله واحد، التأكيد على أن النبي كان شخصاً منقطع النظير، فهو مشرع وفاتح في آن واحد، أولوية القدر والحظ ولكن، في الوقت نفسه، القدرة على اجتراح مآثر عظمى، أي فتح الإمبراطوريات وتنظيم المجتمعات. وقد بدا له، في لحظة من حياته، أن بوسع الإسلام أن يمكنه من تحقيق طموحاته، وكانت مصر هي لحظة مثله الأعلى. وعندما أدرك أنه لا يمكنه أن يوظف الشرق والإسلام لحسابه، حاول عندئذ أن يوظف الثورة الفرنسية مع عقده لتسوية مع الكاثوليكية.

ويمكننا أن نرصد في معالجته للتنوير وللكاثوليكية وللإسلام احتيالاً واحداً، لا يفشل مع ذلك في ترجمة خبرة إنسانية تتجاوز جميع الخبرات الأخرى.

الحواشي

١- كتبتُ صيغة أولى من هذا المقال أقل تفصيلاً بمناسبة ندوة حول الثورة الفرنسية والإسلام نظمتها حركة أنطلياس الثقافية في عام ١٩٨٩، و نُشرت في كتاب:

La Revolution Francaise et L`Orient, Paris, Cariscript, 1989.

وقد استفدت في كتابة هذه الصيغة الجديدة المطورة من ملاحظات السيدين جان لاكوتير وأمين معلوف المنشورة ضمن أعمال تلك الندوة.

٢- لا يمكن فصل الشرق النابليوني عن شرق التنوير الذي حاولت تحليله في كتابي:

Les origines intellectuelles de L`expedion d`Egypte. L`orientalisme islamisant en France (1698 -1798), **Istanbul - Paris, ed. Isis, 1987.**

٣- هذا النص نشره ماسون وبياجي في كتاب:

***Napoleon, manuscrits inedits*, Paris, 1910, II, pp. 17 - 19.**

٤- من المؤكد أن هذه المناقشة حول النبي إنما ترتبط بإملاء نابليون لنصه "ملاحظات حول مسرحية فولتير عن محمد"، الواردة في كتاب:

Commentaires de Napoleon 1er, Tome V, Paris, Imprimerie Imperiale, 1867, pp. 363 - 367.

(5) *Memorial de Sainte - Helene*, edition de Gerard Water, Paris, bibliotheque de La Pleiade, 1956, I, pp. 501 - 502.

وتوجد رواية أقل إفصاحاً في:

Campagnes d`Egypte et de Syrie

في كتاب:

Correspondance de Napoleon Ier, Paris, 1869, T.XXIX, pp. 568 - 569.

وأنا أقوم حالياً بإعداد طبعة لذلك النص بها تعليقات لي، وسوف تصدر عن المطبعة القومية.

(6) Bertrand, *Cahiers de Sainte - Helene*, Manuscrit dechiffre et annotte par Paul Fleuriot de Langle, Paris, Albin Michel, 1959, I, p. 225.

(7) General Baron Gourgaud, *Sainte - Helene, Journal inedit de 1815 a 1818* avec preface et notes de M. Le Vicomte de Grouchy et Antoine Guillois, Paris,.1889, pp. 77 et 152.

(8) *Memoire de Madame de Remusat*, Paris, 1881, p. 274.

٩- في حين أنه في أواخر القرن التاسع عشر سوف يمتدُ إلى الصين نفوذ نزعة الجامعة الإسلامية التي روج لها عبد الحميد.

١٠- من بونابرت إلى الشيخ المسيري،

Correspondance. IV, p. 586.

(11) H. Laurens, "L'Egypte en 1802: un rapport inedit de Sebastiani", ***Annales islamologique***, T.XXIII, 1987, p. 115.

(12) F. Charlles - Roux, ***Bonaparte, gouverneur d'Egypte***, Paris, Plon, 1936, p. 98.

١٣- أي من البدو.

١٤- رؤساء القرى.

١٥- النص الكامل في:

H. Laurens, ***Kleber en Egypte***, T, II, Le Caire, IFAO, 1988, pp. 510 - 514.

١٦- إلى سكان القاهرة، الأول من نيفوز من العام السابع (٢١ ديسمبر ١٧٩٨)؛

Correspondance, V, pp. 287 - 288.

ويوضح الجبرتي أن القائد العام يصور نفسه في صورة المهدي أو النبي نفسه في حين أن مسلكه يثبت العكس تماماً (**تاريخ مدة الفرنسيس بمصر**، ص٩٥). أما في **عجائب الآثار**، فهو يكتفي بالتشديد على حماقة أقواله. [أوردنا النص العربي للبيان كما ورد عند الجبرتي بما فيه من أخطاء إملائية. - المترجم].

(17) I, p. 505.

١٨- نقلاً عن الجنرال جورج سبيلمان في كتاب:

Napoleon et L'Islam, Paris, Librairie Academique Perrin, Paris, 1969, pp. 146 - 147.

19) Bertrand, ***Cahiers de Sainte - Helene***, II, janvier 1819, p. 263.

٢٠- الشيخ المهدي.

(21) I, p. 504.

٢٢- إلى السلطان سليم، وارسو، الأول من فبراير ١٨٠٧،

Correspondance, XIV, p. 161.

(23) Henry Laurens, "La Revolution Francaise, L'Empire napoleonien et La question de L'integrite de L'Empire ottoman", in Jean - Louis Bacque - Grammont et Edhem Eldem ed. ***De La***

Revolution Francaise a La Turquie d`Ataturk, Istanbul - Paris, 1990, pp. 101 - 111.

٢٤- إلى كامباسيريس، بوزنان، الأول من ١١ ديسمبر ١٨٠٦،

Correspondance, XIV, p. 79.

(25) ***Revue d`Histoire Diplomatique***, 1924, p. 155.

(26) ***Memorial***, II, pp. 119 - 121.

النص الرسمي هو

Campagne d`Egypte et de Syrie

(27) II, p. 153.

(28) Chapitre V.

(29) ***Memorial***, I, p. 502.

٣٠- تلك هي صيغة وصيته. وفي سانت هيلين، طلب مسحة المرضى وحصل عليها.

(31) O`Meara, ***Napoleon dans L`exil,*** 2 novembre 1816, T.I, p. 187. Fondation Napoleon, 1993.

(32) I, pp. 1039 - 1040.

(33) ***Memoires d`Outre - Tombe***, deuxieme partie, Livre II.

ملحق

نابليون بونابرت

قناع النبي

في عام ١٦٠ للهجرة، كان المهدي يمسك بزمام الحكم في بغداد، وقد شهد هذا الأمير العظيم، الكريم، المستنير، الشهم، ازدهار الإمبراطورية العربية في ظلال السلم والأمن. وبما أن جيرانه كانوا يخشونه ويراعون جانبه، فقد انكب على العمل على ازدهار العلوم والإسراع بنجاحاتها، لكن السكينة ارتبكت بسبب ابن حكيم الذي شرع، من أعماق خراسان، بتكوين أشياع له في جميع أرجاء الإمبراطورية. وكان ابن حكيم، الطويل القامة، والذي كان بليغاً بلاغة جازمة ونزقة، كان يزعم أنه رسول الله، وقد دعا إلى أخلاق طاهرة عزيزة على أفئدة الجماهير: فقد كانت المساواة في المكانات وفي الثروات هي الشعار الأساسي لخطبه. وقد انتظم الشعب تحت بيارقه. وكان لابن حكيم جيش.

وقد تحسس الخليفة والكبراء ضرورة أن يخنقوا في المهد هذه الانتفاضة الجسيمة الخطر، لكن قواتهم منيت بالهزيمة عدة مرات، وعلى مدار جميع الأيام كان ابن حكيم يحرز غلبة في أثر غلبة.

على أن مرضاً فظيعاً، ترتب على مكابدات الحرب، أدى إلى تشويه وجه النبي. ولم يعد هذا النبي أجمل العرب؛ إن هذه الملامح النبيلة والفخورة، وهاتين العينين الواسعتين والمتقدتين، قد تشوهت، وأصبح ابن حكيم أعمى. وكان بإمكان هذا التحول أن يؤدي إلى كبح حماسة أنصاره: فخطر بباله أن يرتدي قناعاً فضياً.

وظهر وسط أشياعه. لم يفقد ابن حكيم شيئاً من بلاغته. وكانت لكلامه القوة نفسها. وقد تحدث إليهم وأقنعهم بأنه لا يرتدي هذا القناع إلاّ لكي يحول دون أن يعمي النور الذي يفيض من وجهه أبصار البشر.

وقد اعتمد أكثر من ذي قبل على هذيان الشعوب التي أثار حماستها، عندما أدت خسارة معركة إلى تخريب أعماله واختزال أنصاره وإضعاف إيمانهم. وقد حوصر، وكانت الحامية قليلة العدد. يا ابن حكيم، يجب أن تهلك وإلاّ فإن أعداءك سوف يأسرونك! عندئذ يجمع أشياعه ويقول لهم: "أيها المؤمنون، يا من اختارهم الله ومحمد لإحياء الإمبراطورية ولرد الاعتبار إلى أمتنا، لماذا يثبط عدد أعدائنا عزيمتكم؟ اسمعوا: في الليلة الماضية، بينما كنتم

كلكم غارقين في النوم، سجدت وناديت الله: "يا ولي أمري، لقد حميتني على مدار سنين عديدة، وأنا أو الذين معي لابد أننا نذنب في حقك فها أنت ذا تتخلى عنا!". وبعد ذلك بهنيهة سمعت صوتاً يقول لي: "يا ابن حكيم، إن الذين لم يهجروك هم أصدقاؤك الصادقون وهم وحدهم المختارون. وسوف يتقاسمون معك ثروات أعدائك المتكبرين. انتظر القمر الجديد، واعمل على حفر خنادق عميقة وسوف يسقط فيها أعداؤك كذبابات دوخها الدخان"."

وسرعان ما حُفرت الخنادق، وجرى ملء أحدها بالجير. وجرى وضع براميل مليئة بالأنبذة على الحافة.

وبعد أن فرغوا من هذا كله، تناولوا وجبة جماعية، وشرب الجميع من النبيذ نفسه وماتوا كلهم بأعراض واحدة.

ثم جر ابن حكيم جثثهم إلى الجير حيث تحللت فيه، وأشعل النار في المشروبات الروحية وألقى بنفسه فيها. وفي الغداة، كانت قوات الخليفة تزمع الزحف، لكنها توقفت عندما رأت البوابات مفتوحة. وأخذت تدخل بحذر ولم تجد غير امرأة، هي عشيقة ابن حكيم، التي كتبت لها النجاة من بعده.

تلك كانت نهاية ابن حكيم، الملقب بالبرقعي، والذي يعتقد أشياعه أنه قد رُفع إلى السماء مع جماعته.

هذا المثال غريب لا يكاد يصدق. فإلى أي حد يمكن لجنون الشهرة أن يمضي!(*).

وتدور أحداث الحكاية في زمن الخليفة العباسي، المهدي بن المنصور [١٥٨-١٦٩هجرية /٧٧٥-٧٨٥ مسيحية]، وتستند إلى - وتعيد تشكيل - حدث من أحداث التاريخ الإسلامي هو حركة هشام ابن حكيم في وسط آسيا بين عامي ١٥٨-١٦١ هجرية / ٧٧٥-٧٧٨ مسيحية. وكان ابن حكيم قد زعم حلول الله فيه وسارت في أثره جماهير غفيرة، تمكنت جيوشها من إنزال هزائم جسيمة بجيوش الخلافة على مدار أربع سنوات في بخارى ونواحيها، ثم دارت عليه الدوائر، وأخذ أنصاره ينفضون عنه واضطر إلى اتخاذ إحدى القلاع ملاذاً له ولألفين من المؤمنين به. وعندما حوصر، دعا نساءه وأشياعه إلى إلقاء أنفسهم في اللهب والموت معه حتى يكتب لهم الصعود إلى السماء، فاستجاب الجميع لدعوته، وساعد هذا الفعل غير العادي على إحياء فرقته لوقت معين [بحسب سرد ويليام موير في كتابه: **الخلافة، قيامها وانحدارها وسقوطها**، الصادر في لندن في عام ١٨٩١، ص٤٦٧].

ويستفاد من كتاب الفرق بين الفرق لابن طاهر البغدادي، الذي مات في عام ٤٢٩ هجرية– ١٠٣٨ مسيحية، أن فرقة هشام ابن حكيم المعروفة باسم المقنعية أو البرقعية [نسبة إلى قناع أو برقع الأخير] كانت ما تزال موجودة في زمانه "ولهم في كل قرية من قراهم مسجد لا يصلون فيه ولكن

(*) كتب نابليون بونابرت هذه الحكاية العربية في عام ١٧٨٨ أو في عام ١٧٨٩، وقد ترجمناها عن كتاب هنري لورنس: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر**.

يكترون مؤذناً يؤذن فيه. وهم يستحلون الميتة والخنزير، وكل واحد منهم يستمتع بامرأة غيره، وإن ظفروا بمسلم لم يره المؤذن الذي في مسجدهم قتلوه وأخفوه، غير أنهم مقهورون بعامة المسلمين في ناحيتهم، والحمد لله على ذلك" (ابن طاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، القاهرة، مؤسسة الحلبي، دون تاريخ، ص١٥٦).

وبالرغم من مبالغات البغدادي في الحديث عن الفرقة المعاصرة له، إلاّ أن روايته الخاصة بالانتحار الجماعي، والتي أشار إليها موير، لا تختلف كثيراً عن رواية الأخير، وإن كانت روايات أخرى تذهب إلى تكذيب حكاية الانتحار الجماعي وتؤكد أن ابن حكيم، حين استشعر دنو الهزيمة "سقى نساءه سماً ودخل المسلمون الحصن وقطعوا رأسه سنة ١٦٣هـ". ولا تفسر هذه الروايات سبب انتشار رواية الانتحار الجماعي التي تؤيدها الروايات المبكرة.

والطريف أن الفرنسيين قد شهدوا نسخة واقعية جديدة من حكاية ابن حكيم في مصر في صيف عام ١٧٩٩، أي بعد نحو عشر سنوات من كتابة حكاية **قناع النبي**، حيث ووجه الفرنسيون في دمنهور بانتفاضة يحركها شخص مراكشي زعم أنه المهدي المنتظر. وقد زعم نابليون في سانت هيلين أن هذا الرجل قد قتل في معركة ٤يونيو ١٧٩٩ مع الفرنسيين إلاّ أن أشياعه زعموا لوقت طويل أنه حي وأنه سوف يظهر عندما يحين الوقت لذلك. – المترجم.

بونابرت والدولة اليهودية

تمـــــهيد

يحتوى هذا الجزء على دراسة مهمة للمؤرخ الفرنسي المعروف هنري لورنس حـول "مشروع الدولة اليهودية في فلسطين المنسوب إلى بونابرت"(*) فرغ من كتابتها في باريس في ١٣ مايو ١٩٩٧ وأرسل إليّ نسخة منها في ١٠ يونيو ١٩٩٧. وهي تشكل تحديثاً لصياغة أولى كان المؤلف قد نشرها قبل نحو ثماني سنوات، وكانت موضوعاً لمناقشة خاصة شارك فيها لورنس وكاتب هذه السطور وعدد من المثقفين المصريين في القاهرة في ٧ مايو ١٩٩٧.

كما يحتوي هذا الجزء على تذييل بقلم كاتب هذه السطور حول تعامل محمد حسنين هيكل مع قصة المشـروع المذكور في كتابه الأخير حـول المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل.

القاهرة، ١٩٩٧/٦/١٧ ***بشـــــير***

السباعي

(*) هذا هو العنوان الأصلي الكامل لهذه الدراسة، – المترجم.

مشروع الدولة اليهودية في فلسطين
المنسوب إلى بونابرت(١)

منذ بداية الصهيونية، نجد أن الفكرة التي تزعم أن بونابرت قد اقترح إنشاء دولة يهودية خلال الحملة الفرنسية على مصر والشام قد استخدمت كمرجع تاريخي. وقد استخدم هرتزل هذه الفكرة خلال المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بال في عام ١٨٩٧(٢). وخلال الحرب العالمية الأولى، استخدمت الدعاية الصهيونية هذا الزعم على نطاق واسع: ويوجد مثال مميز بشكل خاص لهذا الاستخدام في كتاب هربرت سايدبوتام، **إنجلترا وفلسطين**، الصادر بالإنجليزية في لندن في عام ١٩١٨. والكاتب هو المتحدث بلسان الليبراليين الإمبرياليين – فهو قريب من صحيفة **مانشستر جارديان** – الذين تبنوا موقفاً مماثلاً للصهيونية بشكل بالغ التطرف، بحيث إن وايزمان سوف يمضي إلى حد الشكوى أحياناً من الحرج الذي يسببه له تطرفهم. وفي هذا الكتاب الموجز لتاريخ فلسطين، يحاول سايدبوتام إثبات أن الإسكندر الأكبر وقيصر ونابليون قد أيدوا إيجاد دولة قومية يهودية، ليس فقط لاعتبارات عاطفية، وإنما أيضاً لأسباب تتصل بالواقعية السياسية: فاليهود بوجودهم في فلسطين سوف يشكلون عماد أي كيان إمبراطوري في هذه المنطقة من العالم والشيء نفسه لا يمكن إلاَّ أن يكون صحيحاً بالنسبة للإمبراطورية البريطانية(٣).

تكوين الملف

في عام ١٩١٩، يقدم السياسي والمؤرخ الصهيوني ناحوم سوكولوف في كتابه **تاريخ الصهيونية**(٤) الملف الكامل لمعارف عصره حول هذا المشروع المنسوب إلى بونابرت والذي يقال إنه كان ينوي إنشاء دولة يهودية في فلسطين. ويستند الحجاج كله أساساً على نصين نُشرا في صحيفة **مونيتور اينيفيرسي**. والأول بتاريخ ٣ بريريال من العام السابع [للجمهورية الفرنسية] (٢٢ مايو / أيار ١٧٩٩):

"سياسة، تركيا، القسطنطينية، ٢٨ جيرمينال (١٧ إبريل / نيسان ١٧٩٩). نشر بونابرت بياناً، يدعو فيه جميع يهود آسيا وأفريقيا إلى الانضواء تحت رايته من أجل إحياء أورشليم القديمة. وقد قام بالفعل بتسليح عدد كبير منهم، وكتائبهم تهدد حلب".

والثاني بتاريخ ٩ ميسيدور (٢٧ يونيو / حزيران ١٧٩٩):

"عن الفتح الوشيك للإمبراطورية العثمانية من جانب بونابرت. نترقب تأكيد هذه الأنباء السعيدة. وإذا كانت سابقة للأوان، فإننا نود أن نصدق أنها سوف تتحقق يوماً ما. إن بونابرت لم يفتح بلاد الشام لمجرد أن يرد لليهود أورشليمهم".

علاوة على هاتين الوثيقتين، يستشهد سوكولوف برسالة من يهودي إلى اخوته، كان قد نشرها ج. بيتشينو في كتابه عودة اليهود، الصادر بالإنجليزية في عام ١٨٠٧، وإن كانت الصحافة البريطانية قد رددت صداها منذ عام ١٧٩٨. ووفقاً لتعليق سوكولوف نفسه، فإن هذه الرسالة عبارة عن نوع من برنامج صهيوني، يتألف من خليط من العناصر المختلفة، اليهودية جزئياً، والإمبريالية الفرنسية جزئياً، والمعروض بأسلوب يصبح من المتعذر معه أن يكون مصدر إلهامه مصدراً آخر غير شعور قومي يهودي عميق. وباختصار، فإنه عبارة عن استشراف لمجمل البرنامج الصهيوني(٥). فهو يتحدث في الواقع عن إنشاء مجلس نيابي لليهود الملايين الستة المبعثرين في العالم. ويدعو إلى أن يتولى هذا المجلس الاتصال بحكومة الإدارة الفرنسية لكي يطلب إليها عون الحكومة الفرنسية في إنشاء دولة يهودية تتألف من مصر السفلى وفلسطين حتى عكا والبحر الميت والبحر الأحمر. ويشير إلى أن هذه الدولة سوف تشكل عوناً أساسياً للتجارة الفرنسية. ويتحدث عن وجوب إجراء ترتيبات سرية مع الباب العالي العثماني لتحقيق هذا المشروع.

تلك هي الإشارات الواضحة الوحيدة إلى مشروع دولة يهودية. ويضيف سوكولوف إليها شهادتين على تعاطف بونابرت المفترض مع اليهود: البيان الصادر إلى الجيش بتاريخ ٢٢ يونيو / حزيران ١٧٩٨ حول أسلوب التعامل مع المسلمين(٦) وخاصة الأمر الصادر بتاريخ ١٩ ديسمبر / كانون الأول ١٧٩٨، والذي يكرس صلاحيات رهبان جبل سيناء، بين أمور أخرى، عن طريق "مراعاة موسى والأمة اليهودية، اللذين تحدثنا فكرتهما عن خلق العالم عن العصور الأكثر إيغالاً في القدم".

ويشير سوكولوف إلى أهمية كسب تعاطف وتعاون الجماعات السكانية اليهودية في المنطقة بالنسبة لبونابرت ويشدد على شخصية حاييم فارحي، وزير الشئون المالية اليهودي في إدارة أحمد باشا الجزار، والذي تلعب عائلته [عائلة حاييم فارحي] دوراً ملحوظاً في اقتصاد وسياسة عموم بلاد الشام. وهو يذهب إلى أنه كان يمكن أن يكون عوناً مهماً لبونابرت. لكن ما حدث، خلافاً لذلك، هو أنه وجميع إخوته في الدين، قد آثروا أن يكونوا مخلصين

للعثمانيين. ويختتم الزعيم السياسي الصهيوني كلامه بالحديث عن الفكرة التي تذهب إلى أن حل المشكلة اليهودية على أسس قومية كان فكرة رائجة في فرنسا وفي إنجلترا في أواخر القرن الثامن عشر.

وفي الأعوام التالية، تصبح أطروحة سوكولوف تيمة تجرى استعادتها على نحو منتظم في الحجاج التاريخي للحركة الصهيونية. وهي تجد أقوى تعبير عنها في محاضرة ألقاها في عام ١٩٢٥ الكاتب فيليب جوادالا ونظمت الدعوة إلى الاستماع إليها **الجمعيةُ التاريخية اليهوديةُ في إنجلترا**. وكان من الموجودين في القاعة بشكل خاص وايزمان ولويد جورج. والحال أن إسرائيل زانجويل، الذي قدم المُحاضر، قد تحدث في البداية عن أهمية ذلك النسب [نسب مشروع الدولة اليهودية إلى بونابرت]. وقد أوضح أنه كان قد كتب بالفعل في عام ١٩١٥ (قبل عامين من تصريح بلفور) أن إنجلترا يجب أن تحذو حذو نابليون(٧).

ويعلن جوادالا أن محاضرته سوف تكون تنويعاً على الألحان المألوفة **للهاتيكواه** (النشيد السياسي الصهيوني) **وللمارسيييز**. وهو يؤكد، دون أن يقدم إحالات، أن مشروع بونابرت الخاص بالدولة اليهودية قد جرى التذكير به على نحو منتظم من جانب مؤرخي اليهودية. لكنه لا يفعل غير استعادة النصوص التي كان سوكولوف قد أشار إليها بالفعل، ولكن بشيء من المبالغة. وبالرغم من اعترافه بأن طبعات **مراسلات نابليون** لا تورد أي بيان من هذا النوع، فإنه ينهي كلامه مع ذلك بالتشديد على صحة النداء الذي نسبته صحيفة **مونيتور** إلى بونابرت: فهو يرى " لاجئين يهود فارين من معارك فلسطين لابد أنهم قد أوصلوا النبأ إلى القسطنطينية، ومن هناك، انتقل الخبر إلى الصحيفة الباريسية.

أما لويد جورج فقد اختتم الندوة بالتذكير بالشبه بين وضع عام ١٧٩٩ ووضع الحرب العالمية الأولى. وهو يقدم عندئذ روايته حول أصل تصريح بلفور: في عام ١٩١٧، استعاد الحلفاء الفكرة النابليونية، لكننا، إن تحدثنا بصراحة، سنجد أن دوافع الإنجليز لا تكمن فقط في تعاطف كبير مع الشعب اليهودي. هناك بالتأكيد الأثر الكبير للتوراة التي يعرفها البريطانيون بشكل أفضل من معرفتهم تاريخهم الخاص. إلاَّ أن هناك أيضاً شعور العرفان بالجميل تجاه المساعدة التي قدمها وايزمان لمجهود الحلفاء الحربي باكتشافه تحضير الأسيتون الذي كان ضرورياً لصنع المتفجرات. وكما يؤكد لويد جورج هو نفسه، فإن "الأسيتون قد حولني إلى اعتناق الصهيونية"(٨) وقد دعم، قدر الإمكان، مشاريع وايزمان. وعندئذ ينتقل لويد جورج إلى الحديث عن السياسة الحاضرة ويؤكد أن بوسع فلسطين استقبال عدد كبير من

المهاجرين مع احتفاظها بسكانها العرب. وهو يختتم حديثه بتوضيح أن يهود عام ١٧٩٩ كانوا محقين تماماً في عدم الثقه بنابليون الذي عرف دائماً تقديم وعود دون أن يحترمها في حين أن إنجلترا سوف تحترم دائماً ما وقعت عليه(٩). وبعد مداخلات رئيس مكتب النواب اليهود والحاخام الأكبر في الإمبراطورية البريطانية وايزمان الذي يوجه الشكر إلى لويد جورج، تنتهي الندوة بإنشاد **الهاتيكواه** بناءً على طلب من رئيس الوزراء البريطاني السابق. والحال أن هذا الاجتماع الضخم قد ساعد على إبراز الأهمية الممنوحة رسمياً لمشروع بونابرت.

وسرعان ما تجد محاضرة جوادالللا صدىً لها في فرنسا. فالكاتب ذو الأصل الشرقي الذي يستخدم اسم أوريان محقاً كإسم أدبي، يستحضرها في صحيفة **ميركور دو فرانس** بتاريخ ١٥ يوليو / تموز ١٩٢٦. والحال أن أوريان، الذي يعرف جيداً أرشيفات الحملة الفرنسية على مصر والشام، إنما يشدد على واقع أنه لم يتم العثور على وثيقة من هذا النوع. لكنه يشير إلى وثيقة كانت، حتى ذلك الحين، غائبة عن أنظار المؤرخين الصهيونيين. وهي عبارة عن مقال نشر في لسان حال حركة الايديولوجيين الذين كان بونابرت قريباً منهم، مجلة **ديكاد فيلوسوفيك، ليتريير ايه بوليتيك**، بتاريخي ٢٠ و٣٠ جيرمينال من العام السادس (٩ و١٩ أبريل /نيسان ١٧٩٨). وهذا النص مهم بشكل أخص لأنه سابق بعدة أسابيع على خروج الحملة، في لحظة كانت وجهتها المرتقبة ما تزال فيها سراً. والواقع أنه يخدم في تهيئة الأذهان لعمل فرنسا الثوري في الشرق. والحق أن هذه **الملاحظات حول مصر وبلاد الشام وقوة الإنجليز في الهند**، والتي تحمل توقيع ل.ب.، وهو شخص قد يكون لوسيان بونابرت [أحد أخوة نابليون بونابرت] نفسه، إنما تعلن أن مصر وبلاد الشام تتحينان ثورة مفيدة لأوروبا، وباعثة بالنسبة لجزء من أفريقيا وآسيا. وهذا البعث يجب أن يكون فرصة لأن تدفع أوروبا "ثمن التمدن والاستنارة" الذي تدين به للشرق.

وما أن يتم الفتح، "سوف يكون من حق مصر وبلاد الشام الحصول على الصناعة والرساميل والفنون من جانب الأوروبيين". وعندئذ يقترح الكاتب اللجوء إلى اليهود:

"إننا نعرف مدى تعلقهم بوطنهم القديم وبمدينة أورشليم! ولما كانوا مبعثرين في شتى أرجاء الأرض من جراء اضطهاد يتواصل منذ ثمانية عشر قرناً، فإنهم مازالوا يوجهون أنظارهم إلى فلسطين، حيث يحلمون بأن ترجع إليها ذرية لهم أسعد حظاً، عن طريق معجزة يصعب تصورها. إنهم سوف يتدفقون من أركان العالم الأربعة، إذا ما وجدوا من يقدم لهم الإشارة. ومن السهل نقل ثرواتهم؛ وسوف يتدفق البشر والذهب؛ وسوف يقدمون من هذا

وأولئك الكثير، ليس فقط للعمل على ازدهار الصناعة، وإنما أيضاً من أجل تلبية تكاليف ثورة بلاد الشام ومصر.

"[....] إنهم سوف يكونون أكثر فائدة لهذه البلاد، خاصة أنهم قد شاركوا اليوم في إستثارة أوروبا وأن الزمن قد أجهز على الأشياء الأكثر غرابة في نسق تنظيمهم. لقد أصبحوا قابلين إما لتشكيل قوام أمة أو للإندراج كرعايا تابعين في مخطط حكم مرسوم بشكل حكيم وقوي. ومن الصعب الظن بأنهم لن يكونوا متعلقين بالأمة التي ترفع من شأنهم".

إنه الأمر أكثر من مؤكد أن بونابرت كان على علم بهذا المقال، على أن ذلك لا يثبت بالمرة أن البيان الشهير كان له وجود.

اكتشاف البيان

هذا البيان، تصور يهودي نمساوي مقيم في إنجلترا بعد احتلال النازيين للنمسا، هو فرانتس كوبلر، أنه قد اكتشفه في يوليو / تموز ١٩٤٠. والواقع أن لاجئاً يهودياً آخر من النمسا، هو إرنست فوجيس، كان قد أرسل إليه النص مكتوباً على الآلة الكاتبة بالألمانية في ترجمة لأصل عبري ضائع لبيان بونابرت الشهير، مصحوباً بترجمة لرسالة معاصرة من حاخام القدس. والحال أن النص الأصلي للترجمة قد اختفى هو نفسه في فوضى الحرب العالمية الثانية، لكن الدراسة اللغوية تبين أن التعبيرات المستخدمة مميزة لتعبيرات اللغة الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر. ومن جهة أخرى، فإن فوجيس ينحدر من عائلة حاخامات براغ في العصر نفسه. ويبين بحث أشمل أن النصين لا يمكن أن يصدرا إلاّ عن الحركة الخلاصية اليهودية الفرانكية قوية النشاط في بوهيميا في القرن الثامن عشر(١٠).

ويسارع كوبلر في سبتمبر / أيلول ١٩٤٠ إلى نشر الوثيقتين بالإنجليزية، وهو ما يسمح لي بأن أقدم هنا الترجمة الفرنسية للترجمة الإنجليزية للترجمة الألمانية للأصل العبري الضائع(١١):

"القيادة العامة، أورشليم، الأول من شهر فلوريال من العام السابع (٢٠ أبريل / نيسان ١٧٩٩).

" من بونابرت، القائد العام لجيوش الجمهورية الفرنسية في أفريقيا وفي آسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين.

"أيها الإسرائيليون، يا من تشكلون أمة فريدة، والذين، علـى مـدار آلاف مـن السنين، تمكنت شهوة الفتح والاستبداد من حرمانهم من أراضي أجدادهم وحدها، ولكن ليس من اسـمهم ووجودهم القومي!

"إن الراصدين المتنبهين والمحايدين لمصائر الأمم، حتى بـالرغم مـن كونهـم لا يتمتعون بمواهب أنبياء كأشعياء ويوئيل، قد استشعروا أيضاً منذ وقت طويل منذ ذلك الحين، ما تنبأ به هؤلاء، بإيمانهم الجميل والمنزّه، عندما رأوا دمار مملكتهم ووطنهم الوشيك: أن مفديي الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنم ويرسلُ التمتعُ بامتلاكٍ لميراثهم لا يعود مُهَدَّداً منذ ذلك الحين فصاعداً فرحاً أبدياً على رؤوسهم (أشعياء ٣٥: ١٠)(١٢).

"انهضوا إذاً، فرحين، أيها المنفيون! إن حرباً لم يسبق لها مثيل في سجلات التـاريخ، تخاض دفاعاً عن النفس من جانب أمة [فرنسا] اعتبر أعداؤها أراضيها الموروثة عن الأسلاف غنيمة يجب اقتسامها، تعسفاً وعلى هواهم، بجرة قلم من مجالس وزراء، تمحو عارها وعار الأمم الأبعد، التي طال نسيانها تحت نير العبودية، كما تمحو الخزي الذي حلّ بكم على مدار نحو ألفي عام! وفي حين أن الوقت والظروف قد يبدو أنها أقل ملائمة لإعادة تأكيد مطالبكم أو حتى التعبير عنها، بل ويبدو أنها تفرض التخلي التام عنها، فإنها [فرنسا] تقدم لكم في هذا الوقت بالذات، وخلافاً لكل التوقعات، إرث إسرائيل!

"إن الجيش الطاهر الذي أرسلتني به العناية الإلهية إلى هنا، مهتدياً بالعدل ومشمولاً بالنصر، قد جعل أورشليم مقر قيادتي. وسوف ينقل هذا المقر، في غضون أيام قليلة، إلى دمشق، وهو قريب" مكاني" لم يعد مصدر رعب لمدينة داود.

"أيها الورثة الشرعيون لفلسطين!

"إن الأمة العظمى [فرنسا] التي لا تتاجر في البشر والبلدان مثلما فعل أولئك الذين باعوا أجدادكم لجميع الأمم (يوئيل ٦:٤) تدعوكم من ثم ليس بالفعل إلى انتزاع إرثكم، بل إلـى مجرد تناول ما تم انتزاعه وصونه ضد كل الدخلاء، بضمان ويدعم من هذه الأمة.

"انهضوا! أظهروا أن جبروت ظالميكم الذي كان كاسحاً في وقت من الأوقات لم يخمد شجاعة أحفاد أولئك الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفاً لإسبرطة ولروما (مكابيين ١٢:١٥)، بل أن كل سنوات المعاملة الاستعبادية الألفين لم تنجح في خنقها.

"سارعوا! فهذه هي اللحظة المناسبة التي قد لا تتكرر لآلاف السنين، للمطالبة باستعادة حقوقكم بين شعوب العالم والتي حُجبت عنكم على نحو فاضح لآلاف السنين، وجودكم

السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي غير المقيد في عبادة يهوه، علناً و، دون شك، إلى الأبد (يوئيل ٤: ٢٠)".

أما بيان حاخام القدس الأكبر، فهو يزعم صحة هذا النص، ويكثر من الإستشهادات من النبوءات ويدعو إلى القتال في سبيل الأزلي وفي سبيل بونابرت.

والحال أن هذا النص الذي اكتشفه كوبلر سرعان ما سوف يجرى استخدامه في الدعاية السياسية الصهيونية. وهو يبرز بشكل خاص بين الوثائق التي قدمت في عام ١٩٤٧ إلى الأمم المتحدة لتبرير الدعاوى الصهيونية(١٣).

أما الوثيقة الأخيرة في الملف فقد قدمها أ. س. يهودا في عام ١٩٥١. وهي عبارة عن رسالة من شخص اسمه توماس كوربيه مؤرخة في ٢٩ بلوفيوز من العام السابع (١٧ فبراير / شباط ١٧٩٩) وموجهة إلى باراّ، عضو حكومة الإدارة الفرنسية، واكتشفت في مزاد علني في سوثبي في لندن. وتوماس كوربيه أيرلندي بروتستانتي عامل في الجيوش الفرنسية وقد خدم في حملة أيرلندا في عام ١٧٩٦. وهو يقترح على باراّ خطة عمل الفرنسيين في مصر. وفرنسيته من النوع الأكثر تشوشاً. وهو يستشهد عدة مرات بالتوراة مع إشارات قريبة من نص كوبلر: فهو يرى أنه يجبّ إعادة تكوين اليهود كأمة في فلسطين؛ وفي المقابل، سوف يتعين عليهم أن يكفلوا لفرنسا الأموال الضرورية لخوض حرب ضد إنجلترا وأن يلحقوا الخراب بالأرصدة المالية لدى هذه الدولة. ثم إنهم سوف يكونون مفيدين في عملية استعمار الشرق:

"لا شك أنكم لا تريدون إخلاء فرنسا من سكانها بإرسال عائلات من المستعمرين، أشهد التاريخ كله بأنه لا يمكن لمستعمرة أن تحوز ركيزة أو استقراراً دونها. ومن ثم فإن اليهود هم الذين سوف يتيحون لكم هذه الركيزة، كما سوف يشكلون حاجزاً ضد العرب، والبرابرة الآخرين. وبما أنهم شعب أبي وأنوف، فسرعان ما سوف يصبحون متجاوبين مع الأوامر الداعية إلى الحرب ويصبحون محاربين جيدين، عندما يكفون عن تقبل العزاء تحت نير الأمراء. وأخيراً، فمع توافر المصلحة المشتركة، سوف ينحازون إلى الفرنسيين، وبما أنهم ينظرون إلى مصر عين النظرة التي تقدمها لهم النبوءات عنها، أي بوصفها [مصر] مجرد خطوة، مجرد مرحلة في اتجاه فلسطين، فسوف يندفعون إلى الأمام، تاركين مصر لنفوذ فرنسا. وإذ يخترقون بذلك آسيا، فإنهم سوف يحملون معهم الصناعة والفنون، واستنارة الأوروبيين: موفرين لكم أداة جبارة لتجديد حياة الأسيويين. كما أنهم سوف يوفرون لكم

مستعمرة راسخة، وربما تصبح عما قريب ضرورية للحلول محل إمبراطورية العثمانيين العاجزة والمنحطة، وسوف يقدمون دفعة جيدة للهزات وللأزمات التي سوف تعقب حدث سقوط الترك الوشيك. ومن الوارد أيضاً أن تعصبهم سوف يجرى تهذيبه، عبر صدام الآراء، والناس القادمين من بلدان مختلفة ولهم عادات مختلفة، والمعارف المتباينة. ومن المؤكد أن الصين نفسها سوف تتحسس أثر عودتهم"(١٤).

ويستنتج يهودا من هذه الرسالة أن بارًا قد وجد وقتاً لإرسال اقتراح الأيرلندي إلى بونابرت الذي استلهمه في بيانه المؤرخ في ٢٠ أبريل / نيسان ١٧٩٩.

مسألة صحة البيان

هذا الافتراض يجب رفضه بادئ ذي بدء إذ أنه لم يكن بوسع أي بريد أن ينجح في اختراق الحصار الإنجليزي بين ١٧ فبراير /شباط و٢٠ أبريل / نيسان ١٧٩٩. فالجرد الدقيق الذي قام به بولاي دو لا مورت لا يشير إلاّ إلى خروج بريد واحد من تريستا في ٢٤ أكتوبر / تشرين الأول ١٧٩٨ وصل إلى مصر في ٢٦ يناير / كانون الثاني ١٧٩٩، وخروج بريد واحد من جنوه في ٩ فبراير / شباط وصل في ٢٦ فبراير / شباط ١٧٩٩(١٥). ومن ثم فلا يمكن لرسالة كوربيه إلاّ أن تكون شهادة على رواج أفكار من هذا النوع في فرنسا في مستهل عام ١٧٩٩.

فماذا عن صحة النص الذي اكتشفه كوبلر؟ إن التناقض الأول [لما جاء في النص] مع الحقائق إنما ينبع من المكان المزعوم لصدور البيان، وهو القدس. فبونابرت لم يدخل قط هذه المدينة. على العكس تماماً، فإن المقاومة القوية التي أبداها الفلاحون، الذين يسميهم الفرنسيون بالنابلسيين، والذين تراجعوا إلى الصف الأول للتلال، قد أرغمت الجيش الفرنسي على البقاء في السهل الساحلي. ولن يتوغل الجيش الفرنسي في داخل فلسطين إلاّ خلال حصار عكا، لكن العمليات العسكرية سوف تقتصر على الجليل. وجميع بيانات بونابرت الأخرى، خلال هذه الفترة، والموجهة إلى السكان المحليين، والتي تجد إدراجاً لها في المراسلات، لا يوجد البتة أي تناقض مع الواقع في إشاراتها إلى أماكن صدورها.

وهل كانت لبونابرت مصلحة في كسب عون يهود الشام؟ الواقع أن إجمالي السكان اليهود في بلاد الشام(١٦) في أوائل القرن التاسع عشر لا يتجاوز خمسة وعشرين ألفاً (أقل من نسبة ٢٪ من السكان المحليين)، نصفهم في المدن الأربع: القدس والخليل وصفد وطبرية(١٧). وبونابرت يسيطر على هاتين المدينتين الأخيرتين ويعتمد على أنصار عائلة آل

الزيداني في تلك المنطقة؛ بينما يهيمن النابلسيون على المدينتين الأخريين ومن غير المرجح أن تكون هناك إمكانية لنشوب أية انتفاضة فيهما [لصالح الفرنسيين]. على العكس، فالسكان اليهود لا يملكون سوى الشعور بالرعب، الرعب من أن يجرى اتهامهم بالخيانة لحساب الفرنسيين. وفي عكا، كان الجزار قد أكد عزمه على مقاومة الفرنسيين بذبح السكان المسيحيين في المدينة. ولم يكن هناك أمل يذكر في توقع حركةٍ ما من جانب الجماعة السكانية اليهودية الهزيلة في المدينة. والمصائر السياسية لعائلة فارحي إنما ترتبط ارتباطاً مباشراً بمصائر الجزار بحيث لا يمكنها الانفصال عن حاميها في هذه اللحظة الحرجة(١٨). ثم إن المزاحمين المباشرين لليهود عموماً ولعائلة فارحي خصوصاً هم الروم الكاثوليك الذين كانت تمثلهم، في عكا، عائلة الصباغ. وكان ازدهار عائلة فارحي قد تأسس على إزالة عائلة الصباغ المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بخصوم الجزار. والحال أن الروم الكاثوليك قد انحازوا بشكل عام إلى بونابرت. والانتقال إلى المعسكر الفرنسي كان من شأنه أن يكون انتحاراً اقتصادياً وسياسياً لو أقدم عليه هؤلاء الأعيان اليهود ولم يكن من الوارد أن يجهل بونابرت ذلك. على أن التراث العائلي لآل فارحي يتحدث عن محاولة من جانب الجنرال الفرنسي الذي يقال إنه اقترح على الوزير اليهودي في إدارة أحمد باشا الجزار تأسيس مملكة إسرائيلية لحسابه. لكن هذا التراث لم يسجل كتابةً إلاّ في أوائل القرن العشرين(١٩)، في لحظة تستخدم فها الحركة الصهيونية بالفعل على نطاق واسع الدعوى النابليونية وتشترك فيها عائلة فارحي بالفعل في نشاطات الاستيطان الزراعي اليهودي في فلسطين والذي يرعاه إدمون دو روتشايلد.

أمّا أسماء الحاخامات المشار إليهم في النص المرافق للبيان فهي مختلقة تماماً ولا تتطابق مع أي شيء معروف عن الجماعة اليهودية في القدس في ذلك الزمن(٢٠). وقد شدد كوبلر على واقع أن الأصل الضائع للبيان كان بالعبرية. ولذا فقد وجد نفسه مضطراً إلى أن يبحث، في حاشية بونابرت، عن شخص قادر على تحرير البيان بهذه اللغة. والاسم الوحيد الذي تسنى له ذكره هو اسم فينتور دو بارادي، الذي مات خلال حصار عكا بالضبط(٢١). والحال أن فينتور هو خريج شعبة "شباب دارسي اللغات"(٢٢). وهو لم يتعلم إلاّ العربية والفارسية والتركية (علاوة على اللاتينية واليونانية)؛ وفيما بعد، اهتم بلغة البربر. وليس من المعروف عنه أية دراية خاصة بالعبرية. على أن يهودا(٢٣) يصوره في صورة "عالم متخصص في الدراسات العبرية". وبهذا المعنى يتعامل معه ديروجي وكرمل اللذان يصوران الترجمان في صورة "يهودي مارسيلي ابن قنصل لفرنسا في القرم، متمكن من ممارسة اللغات

الشرقية – بما في ذلك العبرية – منذ طفولته"(٢٤). وهذا غير وارد إلى حد بعيد: فقد كان اليهود ممنوعين من الإقامة في مارسيليا؛ ولم يكن بوسعهم الإقامة لأكثر من ثلاثة أيام في المدينة وقد سهرت الغرفة التجارية في المدينة على التأكد من ذلك بكل دقة. وصحيح أن هذا الحظر يصبح مهجوراً في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر(٢٥) لكن فينتور ولد في عام ١٧٣٩ في زمن كان الحظر مطبقاً فيه تطبيقاً صارماً. وعندئذ فقد يتعلق الأمر بعائلة نزحت من الأندلس [عند طرد اليهود مع المسلمين في عام ١٤٩٢. – المترجم] لكنها عند استقرارها في شرقي البحر المتوسط، واجهت العديد من المصاعب إذ كان الانتماء إلى الأمة الفرنسية يتطلب وجود شهادة على الانتماء إلى الكاثوليكية وكان المتحولون الجدد إلى اعتناق الكاثوليكية مستبعدين [من حق الانتماء إلى الأمة الفرنسية]. وكان التحقق من هذا الأمر صارماً لا سيما وأنه قد ساعد في غرفة مارسيليا التجارية على إزالة اللانجيدوكيين الذين حرص المارسيليون على إبعادهم عن تجارة شرقي البحر المتوسط(٢٦). وأخيراً، فإن طفولة فينتور، شأنها في ذلك شأن طفولة "الأبناء الدارسين للغات"، إنما تدور اعتباراً من سن الثامنة إلى التاسعة خارج العائلة، تحت الوصاية الصارمة من جانب اليسوعيين والرهبان الكبّوشيين.

والواقع أن عائلة فينتور دو بارادي هي عائلة مارسيلية مهمة لعبت دوراً مهماً في تاريخ المدينة: ومن بين اسلاف الترجمان نجد عقيداً في فيلق فاندوم يصبح قائداً لميليشيا بروفانس تحت رئاسة الماريشال بل – إيل. كما نجد سلفاً آخر كان محافظاً لمدينة مارسيليا. ومع مثل هؤلاء الأسلاف، فإن الاحتفاظ بانتماء سري إلى اليهودية، إن كان قد وجد في يوم من الأيام، إنما يبدو مستحيلاً. ثم إن فينتور كان مترجماً جيداً من العربية إلى الفرنسية، ومبتدئاً في دراسة لغة البربر، أما قدراته في مجال التعبير بالعربية فلم تكن جيدة بشكل خاص. ويشكو الجبرتي بالفعل في مناسبات عديدة من تشوش النصوص العربية لبيانات بونابرت [التي ترجمها فينتور]... فماذا كان يمكن أن يقال بالنسبة للتعبير العبري الذي لا نعرف أية شهادة على درايته به...

ومن المعروف تماماً أنه لا يوجد في الأرشيفات الفرنسية أي مؤشر على هذا البيان، ولابد من أن نضيف أن أي شاهد من شهود الحملة، وما أكثر الذين كتبوا ذكرياتهم عنها، لا يذكر هذا النص.

شهادة نابليون

يجيء مصدر آخر من كتابات وإفضاءات بونابرت، خاصة في سانت – هيلين. وتحيل إشارتان بشكل واضح إلى هذه القضية. وترد الإشارة الأولى في كتاب حملتا مصر والشام الذي أملاه نابليون:

" كان عدد اليهود كبيراً في الشام، وكان يحركهم أمل غامض، فقد شاعت بينهم شائعة تذهب إلى أن نابليون، بعد أن يستولي على عكا، سوف يذهب إلى أورشليم، وأنه يريد إعادة بناء هيكل سليمان. لقد كانوا يمنون أنفسهم بهذه الفكرة"(٢٧).

أما الإشارة الثانية فهي ترد في محادثة جرت في ١٥ يناير / كانون الثاني ١٨١٧ وسجلها جورجو(٢٨):

"يهودا بلد فقير. ذكرت للإمبراطور أن ما قيل عن الشعب اليهودي قد تأكد بل ويتأكد باستمرار. فهم مازالوا يخبطون على الأرض، وهذا بشكل معجزة متواصلة.

"أشار جلالته إلى أن هذا شيء غريب، لكنه مندهش أيضاً من أن في فرنسا مليون بروتستانتي، بالرغم من كل ما نزل بهم من اضطهاد. إن الناس جميعهم إنما يتمسكون بدياناتهم. ولا يوجد من اليهود أكثر من مليونين. وتظن مدام دو مونتولون أن عليهم استرداد بلدهم. ويستأنف الإمبراطور:

"إن المسيحيين أكثر بكثير ومع ذلك لم يقدروا على عمل ذلك!".

وفي الحالتين، من الواضح بشكل خاص أن نابليون لا يذكر أية مبادرة من جانبه. فهو ينسب إلى اليهود أنفسهم أمنية استعادة هيكل سليمان ويرى على العكس من ذلك أن هذا المشروع غير قابل للتحقيق.

وفي إفضاء لروديريه، سابق على سانت – هيلين، يخطر ببال نابليون أن يتحدث عن هيكل سليمان:

"إن سياستي إنما تتمثل في أن أحكم الناس بالشكل الذي يريد العدد الأكبر من الناس أن يكونوا محكومين به. واعتقد أن هذا هو أسلوب الاعتراف بسيادة الشعب؛ لقد تمكنت من إنهاء حرب الفانديه بتصوير نفسي في صورة الكاثوليكي، وتمكنت من الوجود في مصر بتصوير نفسي في صورة المسلم، وكسبت الأذهان في إيطاليا بتصوير نفسي في صورة نصير متطرف لمبدأ البابوية. ولو حكمت شعباً من اليهود، لأعدت هيكل سليمان"(٢٩).

وهكذا نرى بشكل واضح الطابع الشرطي تماماً لتأكيداته: فهو لا يؤكد في أي مكان أنه قد "صور نفسه في صورة اليهودي". وفي إفضاءات عشية معركة أوسترليتز(٣٠)، يشير إلى الشعوب التي كان سيثيرها ضد العثمانيين لو كان قد نجح في الاستيلاء على عكا، وهو لا يذكر غير المسيحيين والمسلمين: العرب، الدروز، اليونانيين، الأرمن، الأقباط. ولا يذكر اليهود البتة.

وفي حين أنه قد استخدم وأساء استخدام الدعاية الإحيائية للثورة الفرنسية واعداً الإيطاليين واليونانيين والمصريين والعرب بإحياء أممهم، وهو ما تشهد عليه وثائق الأرشيفات، وفي حين أنه يضيف إليهم الأرمن (لا توجد شهادة وثائقية في هذا الصدد بحسب علمي)، فإنه لا يعبر عن نفسه البتة بلغة كهذه فيما يتعلق باليهود.

والواقع أنه لا يهتم بهم إلاً في عامي ١٨٠٦ و١٨٠٧، عندما ظهرت له ضرورة تنظيم هذا الجزء من سكان إمبراطوريته. وهو يستخدم دون تمييز مصطلحي "الأمة" و"الشعب" لوصفهم(٣١). وهذا لأن الفكرة القومية كانت ما تزال غائمة في ذلك الزمن ولأن معجم العصر إنما يترجم الإلتباسات. ومن ثم لا يمكن مسايرة كوبلر الذي يرى في هذه النصوص إعادة تأكيد للفكرة النابليونية عن الأمة اليهودية(٣٢).

على العكس، إن هدف نابليون هو إذابة اليهود بالكامل في السكان الأوروبيين. ويتوجب لذلك تخفيف، إن لم يكن تدمير "ميل الشعب اليهودي إلى عدد كبير جداً من الممارسات التي تتعارض مع التمدن ومع حسن تنظيم المجتمع في جميع بلدان العالم". فاليهودية يجب أن تكف عن أن تكون نمط حياة تكرسه شريعة وأن تصبح مجرد ديانة(٣٣):

"يجب وقف الداء بالحيلولة دون وقوعه؛ وتجب الحيلولة دون وقوعه بتغيير اليهود.

"ويجب لمجمل التدابير المقترحة أن يؤدي إلى هاتين النتيجتين. وعندما تحدث زيجة واحدة بين يهودي وفرنسية أو يهودية وفرنسي، بين كل ثلاث زيجات، فإن دم اليهود سوف يكف عن أن يكون ذا طابع خاص. وعندما ننجح في منعهم من الانكباب بالكامل على الربا وتجارة سقط المتاع، سوف يعتادون على ممارسة الحرف؛ وسوف يتلاشى الميل إلى الربا.

"وعندما يجرى إخضاعهم للقوانين المدنية، فلن يبقى لهم بعدُ، كيهود، سوى مجموعة من العقائد، وسيخرجون من تلك الحالة التي يعد الدين فيها القانون المدني الوحيد، كما هي الحال عند المسلمين، وكما كانت عليها الحال دائماً في طفولة الأمم. ومما لا طائل من ورائه القول بأنهم ليسوا حقراء إلاً لأنهم عرضة للتكدير: ففي بولندا، حيث يعتبرون ضروريين للعب

دور الطبقة الوسطى في المجتمع، وحيث يلقون المراعاة ويتمتعون بالقوة، نجد أنهم ليسوا أقل حقارة وقذارة وميلاً إلى جميع الممارسات التي تنتمي إلى أحط انعدام للنزاهة.

"ومما لا مراء فيه أن المضاربين سوف يقترحون الاقتصار على إدخال عدد من التحسينات على التشريع الخاص بهم؛ لكن ذلك لن يكون كافياً. والشفاء يتحقق ببطء وكتلة الدم الفاسد لا تتحسن إلاّ بمرور الوقت".

وفي سانت – هيلين، يستعيد أفكاره مع تخفيفها في حديث أفضى به لأوميارا في ٢ نوفمبر / تشرين الثاني ١٨١٦(٣٤):

"كان اليهود كثيرين في البلدان التي حكمتها: وكنت أطمح، بجعلهم أحراراً، وبإعطائهم حقوقاً مساوية لحقوق الكاثوليك والبروتستانت، كنت أطمح إلى أن أجعلهم مواطنين صالحين، وإلى أن أدفعهم إلى التخلي عن الربا وإلى أن يصبحوا بشراً كالآخرين. وأعتقد أنني كنت سأنتهي إلى الوصول إلى ذلك. وقد ذهب فكري إلى أنه، مادام حاخاماتهم يوضحون لهم أنه لا يجب عليهم إخضاع قبائلهم هم للربا، وإن كان ذلك مسموحاً لهم به في التعامل مع المسيحيين والآخرين، فإنهم، بردي إليهم امتيازاتهم التي تجعلهم على قدم المساواة مع رعاياي الآخرين، لابد لهم من اعتباري رئيساً لأمتهم، مثلما كانت حال سليمان أو هيرود معهم، واعتبار رعاياي الآخرين أخوة ينتمون إلى قبيلة مماثلة لقبيلتهم؛ وأنه، من ثم، لن يكون مسموحاً لهم بإخضاعهم [أي بإخضاع هؤلاء الرعايا الآخرين. – المترجم] للربا، بل يجب أن يعاملونا كما لو كنا ننتمي إلى قبائل يهوداً؛ وأنهم، ماداموا يتمتعون بذات الحقوق التي يتمتع بها رعاياي الآخرون، لابد لهم من ثم أن يدفعوا الضرائب، وأن يخضعوا لقوانين التجنيد ولجميع القوانين الأخرى. وهكذا يمكنني الحصول على كثير من الجنود. وعلاوة على ذلك، كان سيتسنى لي أن أجتذب ثروات عظيمة إلى فرنسا، لأن اليهود كثيرون ولأنهم كانوا سيتدفقون على بلد يتمتعون فيه بهذه الامتيازات جد العظيمة".

إن نابليون هو أساساً نصير لاستيعاب اليهود الذي يتمثل، في مرحلة أولى، في القضاء على جميع التمايزات من جميع الجهات، ويتمثل، في مرحلة ثانية، في العمل على اختفاء اليهودية بالإذابة التدريجية لها في الجماعات السكانية الأوروبية. وهكذا نجد أنفسنا بعيدين عن إعادة خلق أمة يهودية تحتل أرضاً خاصة.

أصل نص صحيفة مونيتور

من أين إذاً يجيء إعلان صحيفة مونيتور عن بيان من جانب بونابرت؟ في تلك الفترة، كانت العلاقات الدبلوماسية [الفرنسية] مع الباب العالي مقطوعة وكان جميع الفرنسيين المقيمين في الدولة العثمانية رهن السجن. وكانت أنباء القسطنطينية ترد أساساً من سفارة أسبانيا أو عن طريق أوروبيين تربطهم بالفرنسيين علاقات عمل. وأرشيفات كواي دورساي تجمع جميع هذه المعلومات وتوضح تماماً الجانب غير المتواصل البتة للأنباء. إن رسالة بتاريخ ٢ مارس / آذار ١٧٩٩ لا تتحدث إلاَّ عن إشاعات تتحدث عن زحف للقوات الفرنسية في بلاد الشام، أما الرسالة التالية لها، والمؤرخة في ١٠ أبريل / نيسان ١٧٩٩، فهي تنقل الخبر الكاذب الذي يتحدث عن هزيمة أحمد باشا الجزار، وتشير رسالة أخرى تحمل تاريخ اليوم نفسه إلى أن كليبر هو الذي يقود الحملة على سوريا وأنه قد فَرَضَ الحصار على عكا(٣٥). ولا نجد شيئاً يحمل التاريخ الذي أشارت إليه صحيفة مونيتور ويتضح بشكل عام أن المعلومات مختلفة إلى حد بعيد. وينطبق القول نفسه على الأنباء التي نشرتها الصحف الفرنسية خلال تلك الشهور.

وبالنسبة للفترة نفسها، لا تهتم أرشيفات السفارة الإنجليزية(٣٦) إلاَّ بخطر حدوث تواطؤ بين الفرنسيين والموارنة. والحال أن الدبلوماسية الموفقة التي يقوم بها [العميد البحري الإنجليزي] سيدني سمث إنما تسمح بالفعل بالتوفيق بين الأمير بشير والجزار والعثمانيين في تلك اللحظة الحرجة. ولا يوجد أي ذكر لأي بيان موجه إلى اليهود. ومن المحتمل أن شائعة البيان قد سرت في القسطنطينية، ولكن دون أن تصل إلى السفارات الأوروبية. كما أن أرشيفات السفارة النمساوية لا تحتوي على أية إشارة إلى البيان المنسوب إلى بونابرت(٣٧). وانقطاع المواصلات بين جيش الشرق [الفرنسي] والمتروبول [فرنسا] هو من الوضوح بحيث إن الناس في باريس، خلال الحملة على الشام، لا يعرفون إلاَّ ما ترويه الصحف الأجنبية. ومجلة مثل ديكاد تجد نفسها مضطرة إلى تحذير قرائها من الأخطار (الفعلية) للمناورة السيكولوجية التي يقوم بها أعداء فرنسا(٣٨). وفي عدة مرات، نقلت مونيتور، وهي صحيفة شبه رسمية للحكومة، معلومات من الصحافة الأجنبية بدت لها محتملة وكانت على أية حال طيبة بالأحرى فيما يتعلق بمصير الجيش الفرنسي(٣٩).

على أن الحملة على الشام كانت تعتبر مرحلة أساسية في مسار النزاع الدائر. فلو نجح بونابرت في إثارة انتفاضة ضخمة من جانب شعوب الشرق ضد الباب العالي، فسوف

يكون بوسعه عندئذ أن يستولي على النمسا من الخلف ويفرض السلم على أوروبا. لكن الحديث لا يتجاوز مجرد التكهنات حول نواياه الفعلية. ومن ثم فإن انتفاضة اليهود ليست غير أحد الافتراضات المقترحه حول تحركات بونابرت التالية، وليست واقعاً معروفاً من مصدر مؤكد. على أنه يجري التأكيد عليها إذ يجري النظر إليها على أنها مشجعة في لحظة يبدأ فيها الوضع العسكري في أوروبا في أن يكون سيئاً بالنسبة للفرنسيين. وهكذا فإن مجلة ديكاد تنقل في ١٠ بريريال من العام السابع (٢٩ مايو / آيار ١٧٩٩) المعلومات التي نشرتها صحيفة مونيتور، وتقارنها بالمقال الذي نشرته في السنة السابقة وتعلق عليها على النحو التالي:

"بالإمكان عقد بعض المقارنات بين هذه الفترة وما يحققه في هذه اللحظة بونابرت الذي لا يقهر والذي، وقد أصبح سيداً على بلاد الشام وقائداً لجيش قوامه مائة ألف رجل، أعلن خلاص أورشليم ويهودا ويدعو العبرانيين المبعثرين في الأرض إلى العودة إلى وطنهم القديم. من يدري؟ ربما ينتهي الأمر بهم إلى اعتباره المسيا المخلص وسرعان ما سوف نجد أنفسنا بإزاء عشرين نبوءة سوف يقال إنها تنبأت بالحدث وبزمانه بل وبملابسات حدوثه. ومن المرجح جداً على الأقل أن الشعب اليهودي سوف يصوغ نفسه على شكل أمة، وأن هيكل سليمان سوف يبنى من جديد، وسوف يكون جديراً بالفلسفة أن تتأمل في ماهية الأسباب التي ساعدت على بقاء أعرق الشرائع المعروفة، شرائع موسى، بعد جميع المؤسسات اللاحقة لها في الظهور".

وبعيداً عن الاستناد إلى مصادر أكيدة، فإن نص مجلة ديكاد، كما تدل على ذلك الأرقام المعلنة بشأن عدد جنود الجيش الفرنسي (الأعلى من الأرقام الفعلية عشر مرات)، إنما ينتمي إلى الأماني، وهو يكشف عن كل التوقعات التي استثارتها في باريس أنباء الحملة على الشام.

ولكن من أين إذاً تأتي المعلومات التي ساعدت على ظهور كل هذا الكلام؟ مادامت لا تأتي من القسطنطينية، فإنه يجب البحث عنها في الصحافة الأجنبية... إن رسالة صحيفة مونيتور كانت قد نُشرت في صحيفتين ألمانيتين، هما صحيفة جازيت دي هامبورج وصحيفة فوسيش تسايتونج البرلينية(٤٠) مع بعض التنويعات على التفاصيل. وهامبورج وبرلين منطقتان خارج السيطرة الفرنسية ومحايدتان في حرب الائتلاف الثاني التي كانت قد بدأت للتو. ومن المؤكد أن أصل النص الألماني موجود في الصحافة الإنجليزية.

لم تتوقف إنجلترا عن القتال في حين أن حلفاءها الأوروبيين كانوا قد انسحبوا من الحرب في عام ١٧٩٥ وفي عام ١٧٩٧. وكان عام ١٧٩٨ عاماً حاسماً بشكل خاص مع خطر حدوث إنزال فرنسي في بريطانيا العظمى تحت قيادة بونابرت: وقد أثر حشد الأسطول الفرنسي في طولون على الأذهان. كما شهدت إنجلترا المحاربة أيضاً احتداد البعث البروتستانتي الذي كان قد بدأ في الشطر الثاني من القرن الثامن عشر. والحال أن البيوريتانية البروتستانتية إنما تطور في داخلها، منذ زمن كرومويل، اتجاهاً إلى الإيمان باقتراب نهاية الزمان. وهذا "التحقق للنبوءات" يتميز بالتردد. فهو يتضمن كوارث عظمى مثلما يتضمن سعادة كبرى(٤١). ويسبقه عدد معين من العلامات التي تُنبئ به، وهي مستمدة من نبوءات دانيال ورؤيا القديس يوحنا كاختفاء البابوية واجتماع اليهود في الأرض المقدسة لكي يتحولوا إلى اعتناق المسيحية.

وانهيار الكاثوليكية في فرنسا ثم، بشكل خاص، طرد بابا روما في عام ١٧٩٧ يبدو أنهما يشيران إلى تحقق الجزء الأول من النبوءة. وفي أواخر عام ١٧٩٧، يعلن الألفيون الإنجليز أن الفرنسيين، الذين لا غنى عنهم لاقتصاد أيام العالم الأخيرة، سوف يهتمون بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة. وبعد ذلك بوقت قصير، فإن بونابرت، الذي غالباً ما يجري النظر إليه باعتباره المسيح الدجال (عدو المسيح) يغزو مصر ثم يزحف على فلسطين. واعتباراً من يونيو / حزيران – يوليو / تموز ١٧٩٨، تتحدث الصحافة الإنجليزية في مناسبات عديدة عن المشروع المنسوب إلى بونابرت. ويسود الاعتقاد في إنجلترا بأن من الواضح أن نية الفرنسيين إنما تتمثل في إقامة "جمهورية يهودية" في فلسطين(٤٢).

والحال أن نص صحيفة مونيتور، الذي ربما كان منقولاً عن الصحافة الألمانية، إنما يستمد أصله، بالتأكيد، من الصحافة الإنجليزية. ومن المحتمل تماماً أن الصحافيين الفرنسيين يجهلون هذا الأصل ويتمسكون بالإشارة المقدمة إلى القسطنطينية. والمعلومة سارة لأنها تشير إلى نجاح فرنسي وهي مقبولة لأنها تتماشى مع أفكار تم التعبير عنها بالفعل في أوساط فرنسية معينة. وهكذا يجري الدخول في عملية تأكيد متبادل: فمن المرجح أن مقال مجلة ديكاد المنشور في عام ١٧٩٨ قد أكد للألفيين الإنجليز صحة تفسيرهم للحملة الفرنسية على مصر، وهؤلاء الأخيرون، بدورهم، قد أكدوا للفرنسيين، أنصار الإحياء القومي لليهود، أن هذا الإحياء هو بالفعل هدف بونابرت.

نص البيان

يبقى النص الذي اكتشفه كوبلر. من غير المرجح أن يكون هذا النص قد زور في القرن العشرين. ولابد من الاعتراف بأنه قد راج في وسط أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر. وكوبلر نفسه يشعر بالصدمة من جراء تشابهه المحير مع بيان من نابليون موجه إلى المجريين بتاريخ ١٥ مارس / آذار ١٨٠٩(٤٣). وهو يرى في هذا التشابه دليلاً على صحة النص الذي نشره؛ إلاّ أن بوسعنا على العكس من ذلك أن نتصور أن بيان عام ١٨٠٩ كان بالإمكان استخدامه كنموذج لتحرير بيان مزيف منسوب إلى بونابرت. لكن هذه الصلة ليست ضرورية: فالرطانة الثورية الفرنسية عن الأمة العظمي كانت معروفة جيداً بالفعل في المنطقة المشار إليها [وسط أوروبا] في عام ١٧٩٩.

والحال أن وسط أصل نص أوروبا الوسطى هو الحركة الخلاصية الفرانكية. وهذه الحركة منبثقة من الشابتية التي كانت قد دعت بالفعل في القرن السابع عشر، إلى العودة إلى الأرض المقدسة تحت قيادة المسيا المخلص شابتاى زيفي الذي، بعد أن ألقت السلطات العثمانية القبض عليه، تحول عندئذ إلى اعتناق الإسلام. والحال أن كثيرين من أنصاره قد رأوا في ارتداد الزعيم تعبيراً عن وجوب انقلاب القيم الأخلاقية والدينية ضمن إطار خلاص لا يمكن أن يتم إلاّ عبر الخطيئة [التي سيكون هذا الخلاص عفواً عنها. – المترجم]. ويبدأ المشروع نفسه من جديد في أواخر القرن الثامن عشر تحت قيادة يعقوب فرانك (١٧٢٦ – ١٧٩١) الذي يتحول هو، هذه المرة، إلى اعتناق الكاثوليكية(٤٤). وتكمن أصالة الحركة الفرانكية في تميزها بتوجه "ترابي"، [يدعو إلى احتلال أرض. – المترجم] يعد جديداً نسبياً(٤٥). وفي تسعينيات القرن الثامن عشر، استقر الفرانكيون في أوفينباخ قرب فرانكفورت وشكلوا مجتمعاً من ألف شخص جرى تنظيمه من الناحية العملية على شكل دولة لها جيشها أيضاً. والإعصار الذي يهز أوروبا يؤثر عليهم بالشكل ذاته الذي يؤثر به على الألفيين الإنجليز: فهم يرون فيه تحقق النبوءات ونهاية الزمان، وتخريب القيم الدينية المميز لمذهبهم والذي يجتمع مع تمرد على النظام السياسي والاجتماعي إنما يجعل منهم أنصاراً للثورة الفرنسية(٤٦). بل إن بعضهم قد استقروا في باريس وأصبحوا أنصاراً نشيطين للثورة إلى حد تسليم رقابهم للمقصلة خلال قضية المؤامرة الأجنبية في زمن الإرهاب الأعظم(٤٧).

والسلطات اليهودية التي تتمسك بمبادىء الدين اليهودي التقليدية إنما تكافح بقوة هذه الهرطقة، الأكثر خطورة بقدر ما أنها تربط بين اليهودية والثورة. وفي هذا السياق، فمن

المرجح أن الشائعات الواردة من فرنسا ومن إنجلترا حول أهداف بونابرت قد وصلت إلى أنصار الحركة. وعندئذ، فإن عملية تزييف لأجل مقصد عقائدي، وهي ممارسة شائعة في التاريخ، كان من شأنها أن تكون عنصراً فعالاً في هذه الحرب الدعائية. والحال أن عين فكرة منح أورشليم لليهود هذه، كانت قد نُسبت بالفعل إلى الزعيم المملوكي علي بك الكبير خلال فتحه فلسطين في سبعينيات القرن الثامن عشر(٤٨).

وحائز النص الذي جرى نقله إلى كوبلر ليس شخصاً آخر غير أحد أحفاد العازار فليكلس (١٧٥٤ – ١٨٢٦)، حاخام براغ الأكبر. والحال أن هذا الأخير عدو سافر للفرانكيين. وتُنسب إليه إدانة غاضبة، أمام السلطات النمساوية، للخلاصيين اليهود المتهمين بالتحالف مع الثورة الفرنسية: وهو يرى أن جمعية يعقوب فرانك ليست غير نسخة من الجمعيات اليعقوبية الفرنسية؛ بل إن اسمي "يعقوب" و"فرانك" إنما يشكلان مؤشرين في هذا الاتجاه. وهذا النص يرجع إلى يوليو / تموز ١٧٩٩(٤٩). ونجد فيه إشارة إلى بيان بونابرت وإلى العلاقات بين هذا الأخير والفرانكيين(٥٠). ومن المرجح أن النص الذي اكتشف في عام ١٩٤٠ كان قد تم الاستيلاء عليه من جانب الشرطة النمساوية في براغ في يوليو / تموز ١٧٩٩ وتم إبلاغ فليكلس به.

وتبقى الأطروحة الأخيرة التي عرضها مؤخراً ديروجي وكرمل. فهما ينطلقان من افتراض وجود علاقات منتظمة بين يهود الشرق الأدنى ويهود وسط أوروبا. ويقدمان كمثال على ذلك وجود ممثلين في عكا في عام ١٧٩٩ للتيار الصوفي الحاسيدي الموجود في أوروبا الشرقية. لكن هذا التيار مناوئ بقوة للثورة الفرنسية التي يشتبه في أنها ذات أهداف استيعابية [لليهود]. وهما يعتمدان أيضاً على فقرة من كتاب **حملتا مصر والشام**، ترجع إلى بدايات حصار عكا:

"جرى إيفاد عملاء مسيحيين ويهود ومسلمين إلى دمشق وإلى حلب، بل وإلى بلاد الأرمن؛ وقد أذاعوا أن الجيش الفرنسي في سوريا قد حرك جميع الأذهان. واستقبل القائد العام عملاء سريين وتلقى بلاغات جد مهمة من عدة ولايات في آسيا الصغرى. وقد أرسل عملاء إلى فارس، وإلى ذلك الزمن ترجع علاقاته مع بلاط طهران"(٥١).

ويفترض الكاتبان أن هذه الاتصالات قد جرت آنذاك بين فينتور دو بارادي وأوساط شابتية وفرانكية موجودة في آسيا الصغرى وفي الشام(٥٢). وعندئذ فإن هذه الصلات تفسر قرار الفرانكيين الخاص بكتابة بيان مزور، استولت عليه بعد ذلك الشرطة النمساوية في يوليو

/ تموز ١٧٩٩. وهذا كله يبدو غير مرجح: فلابد أولاً من التأكد من وجود فرانكيين في تلك المناطق (من المرجح أن شابتيين كانوا فيها). ثم إن هذا يجعل من فينتور ليس فقط يهودياً متستراً على ديانته، بل وشابتياً أو فرانكياً أو على الأقل رفيق طريق لهم. وهذا كله إنما يستند على الأصل اليهودي المزعوم لفينتور الذي لا يوجد دليل عليه، والذي كان علاوة على ذلك مريضاً جداً بالفعل في ذلك الوقت (مات قبل انتهاء الحصار).

فماذا عن الاتصالات التي جرت في ذلك الوقت؟ إن الأرشيفات تؤكدها فيما يتعلق بمسيحيي وبمسلمي بلاد الشام. بينما لا توجد في المقابل أية إشارة فيما يتعلق بالأرمن وإن كان نابليون يشير عدة مرات إلى الرغبة التي كانت لديه في إثارتهم ضد العثمانيين(٥٣). كما لا يوجد دليل، بحد علمي، فيما يتعلق بغارس. ومن الواضح أن المنطقة كلها كانت تتساءل عن مصير المعركة الدائرة، لكن مسلمي ومسيحيي الجليل وحدهم، أعداء أحمد باشا الجزار، هم الذين أيدوا الفرنسيين. وللسبب نفسه (العداء للجزار) تعاون معهم شيعة جبل عامل (جنوب لبنان الحالي). لكن الدروز كانوا منزعجين بشكل خاص من نتائج حصار عكا أما الموارنة فقد تمسكوا على نحو حكيم بموقف الترقب والانتظار، غير متحمسين للتحالف مع هذا الصديق المعلن للمسلمين الذي يتفاخر بأنه عدو الكاثوليك. وفيما عدا ذلك لا توجد معلومات.

ومنذ ما قبل عام ١٨١٥، وعلى الأرجح بعد توقيع الاتفاق التصالحي [النابليوني مع البابا الكاثوليكي. – المترجم]، تقارب الموارنة مع الفرنسيين وزعموا آنذاك أنهم كانوا مستعدين للتحالف معهم لو كانوا قد استولوا على عكا، وهي رواية سوف تصبح رسمية، أكان عند الفرنسيين أم عند الموارنة.

وهذه الإشارة إلى اليهود، دون حديث عن أية انتفاضة (من جانبهم)، من الواضح أنها إشارة واحدة وحيدة في مجمل كتاب نابليون؛ في حين أننا نجد، في السياق نفسه، إشارات عديدة إلى مسلمي ومسيحيي بلاد الشام وآسيا الصغرى.

خلاصة

إذا ما نظرنا في محتوى النصوص المختلفة المتوافرة لدينا، فسوف نجد، بشكل واضح، تيمتين رئيسيتين. وتستند أولاهما على الإستشهادات النبوئية بينما تستند ثانيتهما على فكرة الإحياء القومي. ولا توجد التيمة الثانية في حالتها الخالصة إلاّ في النصوص الفرنسية: مقالات مجلة ديكاد والرسالة من يهودي إلى أخوته. وفي المقابل، فإن الإشارات النبوئية توجد عند الألفيين الإنجليز والخلاصيين اليهود. ومن ثم فإن مخطط التفسير الذي يمكننا طرحه هو المخطط التالي: إن الإعصار الثوري في أوروبا قد شدد على نحو متوازٍ من التيارين الرؤيويين البروتستانتي واليهودي سامحاً لهما بتصور أن نهاية الزمان قد باتت قريبة. وكان من نتائج التعبير الذي تم في أوساط ثورية فرنسية معينة عن الفكرة التي تتحدث عن حل قومي للمشكلة اليهودية أن ضخم هذه الاتجاهات التي كانت قوية بالفعل. وعندئذ نسبت هذه الاتجاهات إلى بونابرت مشروع إنشاء دولة يهودية. والحال أن الفرنسيين، التواقين من جهتهم إلى الحصول على أنباء عن جيشهم الضائع في الشرق، قد صدقوا هذه المعلومات، القادمة على الأرجح من إنجلترا، ونقلوها في صحافتهم مقدمين إشارة مختلقة إلى القسطنطينية. وعبر اعتماد مؤكد على نص صحيفة مونيتور ونص مساوٍ له في الصحافة الألمانية، لجأ الفرانكيون (أو خصومهم؟)، مستلهمين نماذج موجودة، إلى كتابة البيان الذي لن يُكتشف إلاّ في عام ١٩٤٠. فعلى مدار القرن التاسع عشر، كانت القصة كلها قد نسيت لتعاود الظهور بعد ذلك مع انبثاق الصهيونية السياسية.

كان من نتائج الثورة الفرنسية تحرير اليهود. وفي العقود التالية، بدا هؤلاء الأخيرون معادين بشكل حاسم لأي مشروع خاص بإنشاء دولة يهودية في فلسطين. إذ كان من شأن هذا النوع من الأفكار والمشاريع أن يجعلهم يبدون في صورة غرباء في المجتمعات التي كانوا يتمنون بقوة أن يندمجوا فيها. وقد حاربوا دون رحمة جميع الاتجاهات الخلاصية التي كانت الفرانكية آخر تجل مهم لها. ومما لا جدال فيه أن التشريع النابليوني، بالرغم من أنه بدا كتراجع إلى الخلف قياساً إلى عمل الجمعية التأسيسية، لأنه يفرض بعض القواعد الحقوقية الخاصة على الجماعات اليهودية، قد ساعد على هذا التحرر – الاندماج.

ومن الواضح عندئذ أن الصهيونية المسيحية المنبثقة من الألفية البروتستانتية والصهيونية العلمانية المنبثقة من الثورة الفرنسية لم يتسن لهما العثور إلاّ على أصداء واهنة في العالم اليهودي في بداية القرن التاسع عشر، خاصة عند أواخر الخلاصيين اليهود الذين لا

توجد لهم صلة بالجماعات اليهودية الأصلية التي جاءوا من صفوفها. وهذان الشكلان للصهيونية سابقان بشكل واضح على ظهور حركة صهيونية بين يهود وسط أوروبا. وإذا كانت هاتان الصهيونيتان قد قدمتاء في القرن العشرين، دعمهما للصهيونية اليهودية (دور الصهيونية المسيحية في السياستين الإنجليزية والأمريكية، والتعاطف مع دولة إسرائيل في صفوف جزء كبير من اليسار الفرنسي...)، فإن أصلهما ومظهرهما الفكري مستقلان تماماً عن التطورات الخاصة بالعالم اليهودي الذي كان قد رفضهما لوقت طويل(٥٤).

وقصة مشروع الدولة اليهودية المنسوب إلى بونابرت هي قصة التقاء هذه التيارات الثلاثة. ومما له دلالته أن بعث واستخدام هذه القصة لأغراض سياسية سافرة إنما يقعان بين لحظتين أساسيتين، لحظة تصريح بلفور ومؤتمر الصلح ولحظة مناقشة الأمم المتحدة لمشروع تقسيم فلسطين.

لقد كان عام ١٧٩٩ عام جميع النزعات الألفية. فبونابرت، بالرغم من قيامه بالعمل على تحقيق البرنامج الثوري الخاص بإحياء شعوب العالم، والذي يشكل نهاية حقيقية للتاريخ في نظر ايديولوجيي الثورة الآخذة بالانتهاء، قد صور نفسه في صورة المهدي الذي ينتظره المسلمون. أما البروتستانت الإنجليز، فقد رأوا فيه المسيح الدجال [عدو المسيح]، بينما اعتبره الخلاصيون اليهود أداة المشيئة الإلهية. وبوسع جميع هذه التيارات أن تمتزج وقد امتزجت في القرن التاسع عشر في هذا المزيج من العقلانية والروحانية الذي مثلته الماسونية والسان – سيمونية (كان الفرانكيون مرتبطين بالماسونية، وبعض تيماتهم، خاصة تيمة "المرأة" المرتبطة بالشرق، تظهر من جديد في السان – سيمونية).

وهكذا فإن سخرية التاريخ قد حكمت على بونابرت، الذي أراد أن يصور نفسه في صورة المدافع عن الإسلام والعروبة، بأن يبدو، دون وجه حق، في نظر الأجيال التالية، كواحد من مؤسسي الصهيونية، وهو ما لم يكنه البتة ولم يزعمه قط.

الحواشي

(١) ظهرت صياغة أولى لهذا النص في محلة:

Revue d`Etudes Palestiniennes

في عام ١٩٨٩ (العدد ٣٣، ١٩٨٩، ص ص٦٩ – ٨٣).

ومنذ ذلك الحين، صدر كتاب ديروجي وكرمل اللذين حاولا إثبات بطلان جانب من استنتاجاتنا، ومن هنا التحديث الحالي لدراستنا.

(2) Jaques Derogy, Hesi Carmel, ***Bonaparte en Terre - Sainte***, Paris, Fayard, 1992, p. 25.

(3) Herbert Sidebotham, ***England and Palestine***, Londres, Constable, 1918, p. 109.

(4) Nahum Sokolow, ***History of Zionism***, Londres, 1919, I, pp. 63 - 76 et II, pp. 220 - 225.

(٥) "هذه الرسالة هي نوع من برنامج صهيوني. وهي خليط من عناصر مختلفة، يهودية جزئياً، وفرنسية إمبريالية جامعة جزئياً، يجرى عرضها بشكل لا يمكن أن يكون مصدر إلهامه غير شعور قومي يهودي عميق. والتكهنات السياسية الضبابية لتلك الأعوام إنما تتضمن بالفعل بذور بعض الأفكارَ التي يجري تطويرها إلى حد الوعي والوضوح الكاملين بعد ذلك بمائة سنة في الخطب والكراسات والبرامج الصهيونية". I, p. 65

(٦) "تعاملوا معهم مثلما تعاملتم مع اليهود ومع الإيطاليين؛ احترموا رجال الفتوى بينهم واحترموا أئمتهم، مثلما فعلتم مع الحاخامات والأساقفة؛ ولتبدو تجاه الشعائر التي يوصي بها القرآن، وتجاه المساجد، التسامح عينه الذي أبديتموه تجاه الأديرة المسيحية والمعابد اليهودية، تجاه ديانة موسى وديانة يسوع المسيح" [ارجع إلى نص البيان في ترجمتنا العربية لكتاب **الحملة الفرنسية في مصر**، لهنري لورنس وآخرين، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ص٥٧ – ٥٨. المترجم].

(٧) "إن نابليون، تحت سحر الأربعين قرناً التي كانت تطل عليه من قمم الأهرام، قد أعلن مشروعه الخاص بإعادة اليهود إلى أرضهم. فهل سوف تنفذ إنجلترا، ومصر تحت أقدامها بالمثل، المشروع الذي أحبطت جهود نابليون من أجله؟"

Londres, 1925, p. 13.

(8) P. 50: "Aceton converted me to Zionism".

(٩) ص٥٤: "كان اليهود يعرفون أن توقيع نابليون لا قيمة تذكر له، لكنهم يعرفون أيضاً أن التوقيع البريطاني يكون دائماً محل احترام".

(١٠) بالنسبة لجميع أعمال كوبلر Kobler ، فإنني أحيل إلى كتابه:

Napoleon and the Jews, New - York - Jerusalem, 1975.

والذي يعد أكمل تعبير عن بحوثه حول هذا الموضوع.

(١١) يقدم ديروجي وكرمل ترجمة أخرى، ولكن دون تعديل مهم للمعنى [ترجمنا البيان عن النص الإنجليزي الذي نشره كوبلر. – المترجم].

(12) p. 35: "that the ransomed of the Lord shall return, and come with singing unto Zion, and the enjoyment of henceforth undisturbed possession of their heritage will send an everlasting joy upon their heads".

هذه الآية تجري ترجمتها على النحو التالي في الكتاب المقدس الصادر عن لابلياد: "أولئك الذين حررهم يهوه سوف يرجعون. سيذهبون إلى صهيون مهللين، وعلى جباههم فرح أبدي. وتحدث البهجة والمسرة. وتنتهي الأحزان والتأوهات"، باريس، ١٩٧٧، الجزء ٢، ص١٢٠ [الترجمة العربية الصادرة عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٩٢، ص٨٨٧، تورد هذه الآية على النحو التالي: "ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنم وفرح أبدي على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهد". – المترجم].

والحال أن أ.س. يهودا، في مقال "مفهوم الدولة اليهودية عند نابليون"، المنشور في مجلة ***Evidences***، عدد مايو / أيار – يونيو / حزيران ١٩٥١، ص ص٣ – ٨ والذي ترجم الجزء الأكبر من البيان والذي أستلهم ترجمته، لا يورد هذه الفقرة.

(13) Kobler, p. 10.

(14) ***Evidences***, mai - juin 1951, p. 7.

(15) Boulay de La Meurthe, ***Le Directoire et L'expedition d'Egypte***, Paris, 1885.

(١٦) "بلاد دمشق".

(١٧) أرقام قدمها موشيه ماعوز في مقال "التغير في وضع الجماعات اليهودية في فلسطين وسوريا في منتصف القرن التاسع عشر"، في كتاب:

Studies on Palestine during the Ottoman Period, Moshe Ma'oz ed., Jerusalem, 1975, p. 143.

(١٨) حول عائلة فارحي، أنظر مقال توماس فيليب التركيبي الممتاز "عائلة فارحي ووضع اليهود المتغير في سوريا، ١٧٥٠ – ١٨٦٠"، في مجلة:

Middle Eastern Studies, XX (1984), pp. 37 - 52.

(19) Derogy et Carmel, pp. 163 - 166.

(20) Kobler, pp. 68 - 71.

(21)Kobler, p. 58.

(٢٢) الدراسة الأشمل حول فينتور هي دراسة عطية عامر

: Attia Ammer

Venture de Paradis, Orientaliste et Voygeur (1739 - 1799).

أطروحة دكتوراه، دون تاريخ، جامعة باريس الرابعة.

(23) p. 8.

(24) p. 373.

(25) Paul Masson, ***Histoire du Commerce Francais dans Le Levant***, Paris, Hachette, 1911, pp. 134 - 137.

(26) Masson, p. 150.

(27) ***Correspondence de Napoleon***, XXX, p. 44.

(28) Gourgaud, ***Sainte - Helene, Journal inedit de 1815 a 1818*** avec Prefaces et notes de M. Le vicomte Grouchy et Antoine Guillois, Paris, I, p. 413.

(٢٩) نقلاً عن الجنرال جورج سبيلمان Georges Spillmann في كتابه:

Napoleon et L`Islam, Librairie academique Perrin, Paris, 1962, p. 161.

(30) Spillmann, pp. 146 - 147.

(31) Correspondance.. XIII, p. 123:

"جميع اليهود، من أية أمة كانوا"

et p. 159:

"مصلحة الشعب اليهودي" و"زعماء الأمة اليهودية".

(٣٢) ص١٣٨. لتكوين فكرة كلية عن العلاقات بين نابليون واليهود، ارجع إلى المقال التركيبي الممتاز الذي كتبه جاك جودشو في معجم نابليون.Le Dictionnaire Napoleon. وجودشو أيضاً يرى أنه لم يكن بوسع نابليون أن يكتب البيان الشهير.

(33) ***Correspondance***... XIII, p. 719.

رسالة إلى شامباني، بتاريخ ٢٩ نوفمبر / تشرين الثاني ١٨٠٦.

(34) O`Meara, ***Napoleon dans L`exil***, T.I, p. 187, Fondation Napoleon, 1993.

(35) MAE. Correspondance politique, Turquie, Vol 200.

(36) PRO/FO/78/23.

(37) N.M.Gelber, ***Zur Vorgeschichte des Zionismus***, 1927, cite par Kobler, p. 112.

(٣٨) ٣٠ فريمير من العام السابع (٢١ ديسمبر / كانون الأول ١٧٩٩): "بعد وقت قصير من هذه الأنباء السعيدة، شاع نبأ محزن، فظيع، هو نبأ مصرع بونابرت، الذي قيل إنه لقي حتفه تحت ضربات بعض القتلة. ومن حسن الحظ أن لا شيء أقل بعداً عن الحقيقة من ذلك. إن رسالة وردت في صحيفة صادرة في فينيا هي وحدها التي تسببت في هذه الشائعة. ومن المرجح أن هذه حيلة من ألف حيلة يلجأ إليها أعداؤنا. فلتسمحوا لنا إذاً بأن لا ننشر كالصحف الأخرى عين تفاصيل نبأ تسارع صحيفة تعتبر رسمية إلى إثبات عدم رجحانه وكان يكفي لأن يكون محل شك لو لم يجر الترويج له (نبأ حملة جديدة من جانب الملوك ضد الجمهورية)".

(٣٩) على سبيل المثال، بتاريخ ٢١ بروميير من العام السابع (١١ نوفمبر / تشرين الثاني ١٧٩٨)، نبأ حول نشيد حمد لله أنشد في ٥ تيرميدور من العام السادس في مسجد القاهرة الكبير احتفالاً بجبروت الفرنسيين المباركين من الله.

(40) Derogy et Carmel, p. 346.

لا يشير الكاتبان إلى مصدرهما ولا يشيران بشكل واضح إلى تاريخ هذه النصوص، الأمر الذي لا يسمح بمعرفة ما إذا كانت سابقة أم لاحقة لما نشر في صحيفة مونيتور. وهاتان الصحيفتان غير متوافرتين في المكتبات الفرنسية.

(٤١) في الألفية الإنجليزية كما في الخلاصية اليهودية، يجري الإعلان عن اقتراب نهاية الزمان بسلسلة من الكوارث. وكما يقول جيرشوم ج.شوليم Gershom G. Scholem فإنه: "في جميع هذه النصوص، في جميع هذه الروايات، فإن الإعلان عن الكوارث، التي لا يمكن تصور رؤى نهاية العالم دونها، إنما يجري وصفه عبر صور البرق والرعد والشرر التي تتخذ جميع ضروب الأشكال: الحروب العالمية والثورات والأوبئة والمجاعات والكوارث الاقتصادية، ولكن أيضاً الإرتدادات عن الدين وتدنيسات اسم الله، ونسيان التوراة ورفض كل نظام أخلاقي مضياً إلى حد انقلاب قوانين الطبيعة"،

Le messianisme juif, Paris, 1974, p. 37.

(٤٢) حول هذه المسألة، ارجع إلى مقال سائير فريتيه التركيبي الممتاز، "عودة اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي، ١٧٩٠ - ١٨٤٠"، في مجلة:

Middle Eastern Studies, VIII (1972), pp. 3 - 50.

(43) Kobler, pp. 126 - 129.

(٤٤) لا يترفق شوليم على نحو خاص بشخصية فرانك الذي "سوف يظل في ذاكرة الناس بوصفه الحالة الأكثر رعباً في تاريخ اليهودية. وسواء كان ذلك لأسباب شخصية أم لأسباب أخرى، فإن هذا الزعيم ا ينى قد تصرف في جميع أفعاله كشخص فاسد ومنحط بصورة مطلقة"، op.cit., p. 197.

(45) Scholem, p. 198:

"وحتى إذا ما أخذنا في اعتبارنا سعة حيلة فرانك وافتقاره إلى الذمة واحتياله وطموحه، [....]، فإنه يظل شخصية مرعبة وشيطانية. إن الوعود التي قدمها إلى أتباعه ورؤاه عن الكارثة النهائية جد القريبة ما عادت تؤثر علينا كثيراً اليوم. لكن مشروعه الترابي [الخاص باحتلال أرض] لا يكشف لنا فقط عن حبه للسلطة؛ إنه يوضح لنا أنه كانت لدى أتباعه رغبة مفاجئة لكنها مؤكدة في استعادة الوجود القومي بل والاقتصادي للشعب اليهودي. وبالرغم من أن مذهبه قد اكتسب طابعا سلبياً تماماً، إلاَّ أن فيه مع ذلك رغبة صريحة في الحياة".

(46) Scholem, pp. 211 - 212:

"لا شك في أن الثورة قد جاءت لهم بتأكيد لآرائهم العدمية؛ فأعمدة العالم يبدو الآن أنها قد اهتزت والأعراف القديمة آخذة بالانهيار. وقد أضفى "المؤمنون" على هذه الأحداث دلالة مزدوجة. فمن ناحية، لكونهم روحانيين عصبويين وذاتيين، رأوا فيها علامة تدخل إلهي خاص لحسابهم.[....] ومن ناحية أخرى، اعترف "المؤمنون" بأنها [الثورة] فعالة لأنها أطاحت بجميع السلطات الروحية والزمنية، وأساساً بالسلطة الإكليريكية. [....] وفي جميع هذه الأدبيات، فإن الأفكار الخاصة بنهاية العالم قد التقت مع النظريات السياسية للثورة والتي يمكنها، على أية حال، أن تؤدي أيضاً إلى "تحرر سياسي وروحي". وكما رأينا، فإن هذه الصيغة الواضحة والتي غالباً جداً ما جرى إهمالها هي الصيغة التي حدد بها فرانكيو براغ أهداف حركتهم".

(47) Scholem, ***Du Frankisme au jacobinisme, La vie de Moses Dobrus alias Franz Thomas von Schonfeld alias Junius Frey***, Paris, 1981.

(48) Ben Halpern, "A Note on Ali Bey`s" Jewish state"Project", ***Jewish Social Studies***, XVIII, pp. 284- 286.

(49) Kobller, p. 99.

(٥٠) يقدم كوبلر الترجمة الإنجليزية التالية [نكتفي هنا بتقديم ترجمتنا العربية لهذه الأخيرة. – المترجم]: "إن إسقاط سرس البابوي قد غذى أوهامهم بما يكفي بالفعل. وقد أعلنوا أن هذا علامة على اقتراب مجيء المسيا المخلص الذي ينتظرونه، لأن ذلك يشكل عقيدتهم الرئيسية. (...) وقد غذت فتوحات الجنرال بونابرت مذهبهم المبني على الخرافات. إن فتحه في الشرق،

خاصة فتح فلسطين، فتح أورشليم، بيانه إلى الإسرائيليين هو بمثابة الزيت المصبوب على لهيبهم، وهناك اعتقاد بأن ذلك هو السبب الأصلي للصلة بينهم وبين جمعية فرانك. ولكن كيف؟ ولماذا؟ من الذي يمكنه معرفة ذلك؟" (p.100). أنظر أيضاً الترجمة التي قدمها آرثر ماندل Arthur Mandelفي كتابه:

The Militant Messiah or the Flight From the Guetto. The Story of Jacob Frank and the Frankist Movement, Atlantic Highlands, New Jersey, 1979, pp. 114 - 115.

أما ديروجي وكرمل، اللذان لا يشيران إلى مصادرهما، فإنهما يقدمان ترجمة أخرى لهذا النص مع تحويرات: فبدلاً من "جمعية فرانك"، يقولان "الجمعية الفرنسية"، والشيئان مختلفان.

(51) ***Correspondance***, XXX, pp. 43 - 44:

هذه الفقرة تلي مباشرة الفقرة التي أوردناها بالفعل والتي تتحدث عن طموح يهود الشام المشوش إلى وصول بونابرت إلى أورشليم وإعادة بناء هيكل سليمان.

(52) pp. 373 - 374.

(53) Voir ***Memorial***, I, p. 454.

(٥٤) حول هذه النقطة، أنظر التحليلات المضيئة التي قدمها بن هالبرن في كتابه:

The Idea of the Jewish State, Harvard University Press, 1969.

خاصة الصفحات ٢٥١-٢٦١ وأنظر كذلك مقال رونالد ر. ستوكتون، "الصهيونية المسيحية: النبوءة والرأي العام"، في مجلة:

Middle East Journal, XLI (1987), pp. 234 - 255.

تذييل

محمد حسنين هيكل ومشروع الدولة اليهودية المنسوب إلى بونابرت

بعد أكثر من سبع سنوات على ظهور دراسة هنري لورنس الأولى حول "مشروع الدولة اليهودية المنسوب إلى بونابرت" والتي تتمثل أطروحتها الرئيسية في أن البيان المنسوب إلى بونابرت والموجه إلى اليهود هو بيان مزور، ظهر البيان مجدداً في الجزء الأول من كتاب محمد حسنين هيكل **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل** (دار الشروق، القاهرة، مارس ١٩٩٦) مترجماً إلى العربية بعد أن كان قد ظهر مترجماً إلى العربية أيضاً في الترجمة العربية لكتاب ريجينا الشريف، "**الصهيونية غير اليهودية**" الصادرة في سلسلة "عالم المعرفة" الكويتية في ديسمبر ١٩٨٥.

وبالرغم من أن البيان يعتبر، بذلك، معروفاً للجمهور القارئ العربي منذ عام ١٩٨٥، إلاّ أن ترجمته العربية الأولى لم تثر ردود الفعل التي أثارها ظهور ترجمته الثانية في كتاب هيكل، بل إن عدداً من الصحافيين المصريين قد تصور أن البيان لم يظهر في ترجمته العربية إلاّ في هذا الكتاب، بل وأن هيكل هو الذي كشف عنه لأول مرة. وقد أعيد نشر ترجمة هيكل للبيان بعد ذلك في عدد من الصحف المصرية وسط مناخ احتفاء بقدرات هيكل ومستشاريه البحثية.

وفيما يلي ترجمة هيكل للبيان [نرجو مقارنتها بترجمتنا له الواردة في هذا الكتاب وبالنص الإنجليزي الذي نشره كوبلر في عام ١٩٤٠ والذي ننشر أدناه صورة له. – ب.س.]:

"من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين.

"أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.

"إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين – وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل – قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

"انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه. إن أمامكم حرباً مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم... لابد من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزي الذي شل إرادتكم لألفي سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلي عن حقكم، ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز.

"إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها.

"يا ورثة فلسطين الشرعيين..

"إن الأمة الفرنسية التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

"انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفاً لإسبرطة وروما، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة لم تفلح في قتل هذه الشجاعة.

"سارعوا! إن هذه هي اللحظة المناسبة – التي قد لا تتكرر لآلاف السنين – للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة إلهكم يهواه، طبقاً لعقيدتكم، وافعلوا ذلك في العلن وافعلوه إلى الأبد.

بونابرت" (ص ص ٣١–٣٢).

والحال أن هذه الترجمة، لو تركنا جانباً ما تحتوي عليه من تحويرات ثانوية لمصطلحات ولجمل وردت في نص كويسلر، إنما تنطوي على تزوير إضافي للبيان المزور أصلاً.

فأولاً، يحذف هيكل التاريخ والمكان المزعومين الواردين في النص المزور، ويشير بدلاً من ذلك – في تمهيده لنشر الترجمة – إلى أن البيان صدر أمام أسوار القدس أو خارج أسوار القدس، بالرغم من أن بونابرت لم يقف أمام تلك الأسوار، بل أمام أسرار عكا التي لم يتمكن من فتحها، وبالرغم من أن البيان المزور يشار في سطره الأول إلى أنه صادر في القدس، التي لم يدخلها بونابرت. وزيادة في التمويه، تتحدث ترجمة هيكل عن اختيار القدس مقراً لقيادة الجيش الفرنسي في حين أن البيان المزور يتحدث عن جعل القدس مقراً لهذه القيادة، بما يتماشى مع زعم المزورين أن القدس هي مكان صدوره.

وثانياً، يزور هيكل ترجمة فقرة تتحدث عن الحرب التي تخوضها فرنسا ضد أعدائها الذين يريدون تقسيم أراضيها "بجرة قلم من مجالس وزراء"، هي مجالس وزراء الائتلاف الثاني الذي تشكل ضد فرنسا في أوائل عام ١٧٩٩ من إنجلترا وتركيا وبروسيا وروسيا والنمسا، فتتحول إلى فقرة تتحدث عن حرب يتعين على الإسرائيليين خوضها، ولذا يحذف هيكل جملة "بجرة قلم من مجالس وزراء" حتى لا ينكشف تزويره للترجمة.

وثالثاً، بالرغم من أن هيكل لا يشير إلى مصدره الذي نقل عنه البيان، إلاّ أنه يحاول في حاشية ترد أسفل ترجمته للبيان (ص ص ٣٢–٣٣) إيهام القارئ بأن مصدره هو أرشيفات الحملة الفرنسية على مصر حيث يقول:

"كانت هناك باستمرار عملية بحث عن وثائق الحملة الفرنسية على مصر، ولحقب طويلة بدا وكأن هذا الكنز التاريخي قد ضاع واندثر، وكان الظن أنه ربما غرق هذا الكنز عندما كانت الصناديق التي تضم أوراقه محمولة على ظهر مركب فرنسي من المراكب التي تسللت عائدة إلى فرنسا بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر. وساعد على ترجيح هذا الاحتمال أن الأسطول البريطاني، بقيادة "الأميرال" نلسون، كان يترصد السفن الفرنسية المتسللة عائدة إلى مرسيليا محاولة اختراق طوق

الحصار البحري. ولعل الخطأ الذي وقع فيه كثيرون بين الباحثين والدارسين، أنهم اتجهوا إلى الخزائن التي كان طبيعياً أن تودع فيها أوراق الحملة الفرنسية وهي وزارة الخارجية أو وزارة الحربية أو وزارة المستعمرات. ثم خطر ببال أحد الأساتذة المصريين المدققين، وهو الدكتور "أحمد حسين الصاوى" أن يلقى نظرة على محفوظات وزارة البحرية الفرنسية وإذا الكنز معظمه موجود في خزائنها".

وهذا الكلام الذي يجرى تقديمه كبديل عن إشارة محددة إلى المصدر الذي جرت عنه ترجمة البيان هو، بالمناسبة، مجرد كلام فارغ من بدايته إلى نهايته:

فأولاً، ليس صحيحاً أنه كانت هناك عملية بحث عن وثائق الحملة، فأماكن وجودها كانت معروفة دائماً، ومن ثم فليس صحيحاً أن أحداً من الباحثين قد تصور أنها ضاعت أو غرقت في البحر بعد فشل الحملة . فجميع الباحثين منذ أوائل القرن التاسع عشر كانوا يعرفون أن أغلبها موجود في فرنسا ولم يندثر بسبب تهديد إنجليزي مزعوم، وكلهم يعرفون – ومعهم تلاميذ المدارس – أن خروج الفرنسيين من مصر بأسلحتهم ووثائقهم بل وخيولهم كان بناءً على معاهدة جلاء وقع عليها الإنجليز والأتراك والفرنسيون في الإسكندرية في ٣١ أغسطس ١٨٠١. وبموجب هذه المعاهدة، تكفل الإنجليز بعودة الفرنسيين سالمين إلى فرنسا، بل وعلى سفن إنجليزية. وفي عام ١٩٢٩، نشر عبد الرحمن الرافعي ترجمة لهذه المعاهدة في الجزء الثاني من كتابه **تاريخ الحركة القومية في مصر وتطور نظام الحكم**، وكان قد أشار في الجزء الأول من ذلك الكتاب إلى وجود أغلب وثائق الحملة في أرشيفات وزارات البحرية والحربية والخارجية الفرنسية!

وثانياً، فإن الكتب العديدة التي صدرت في فرنسا منذ أوائل القرن التاسع عشر عن الحملة على مصر إنما تحيل القارئ دائماً إلى أرشيفات وزارة البحرية الفرنسية إلى جانب أرشيفات أخرى.

وثالثاً، فإن جانباً كبيراً ومهماً من وثائق الحملة قد نشر بالفعل في مجلدات وكتب منذ القرن التاسع عشر، خاصة بيانات ورسائل بونابرت، ولعل أول هذه الكتب هو كتاب تحت عنوان: **وثائق متنوعة ومراسلات تتصل بعمليات جيش الشرق في مصر**، والصادر بالفرنسية في باريس في شهر ميسيدور من العام التاسع للجمهورية [يونيو – يوليو ١٨٠١] أي قبل جلاء جيش الحملة عن مصر بنحو شهر، وتوجد نسخة من هذا الكتاب في مكتبة الجمعية التاريخية المصرية بوسط القاهرة، وإن كانت مفهرسة تحت عنوان: **بيانات الجنرال بونابرت**. ومن بين هذه الكتب كذلك كتاب **التاريخ العلمي والعسكري للحملة الفرنسية في مصر** الصادر بالفرنسية في باريس في عشرة أجزاء بين عامي ١٨٣٠ و١٨٣٦ وكتاب لاجونكيير **حملة مصر** الصادر بالفرنسية في باريس في خمسة أجزاء بين عامي ١٨٩٩ و١٩٠٧، وتوجد نسخة منه بمكتبة الجمعية التاريخية المصرية. أما جميع وثائق نابليون والمنشورة في اثنين وثلاثين مجلداً في عهد الإمبراطورية الثانية فهي معروفة جيداً، كما أن جميع أوراق ووثائق كليبر في مصر قد نشرت من جانب المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة في أربعة أجزاء منذ عام ١٩٨٨.

ومن ثم فإن الحديث عن "اكتشاف" أحمد حسين الصاوى لوثائق الحملة هو مجرد كلام فارغ، فأغلب هذه الوثائق معروف ومنشور قبل بحثه عنها!

* * * *

صورة البيان المنسوب إلى بونابرت

General Headquarters, Jerusalem, On I Floreal Year VII,

Bonapart, Commander - in Chief of the Armies of the French Republic in Africa and Asia, to the Rightful Heirs of Palestine.

Israelites, unique nation, whom, in thousands of years, lust of conquest and tyranny were able to deprive of the ancestral lands only, but not of name and national existence!

Attentive and impartial observers of the destinies of nations, even though not endowed with the gifts of seers like Isaiah and Joel, have also felt long since what these, with beautiful and uplifting faith, foretold when they saw the approaching destruction of their kingdom and fatherland: that the ransomed of the Lord shall return, and come with singing unto Zion, and the enjoyment of henceforth undisturbed possession of their heritage will

send an everlasting joy upon their heads (Isaiah 35:10).

Arise then, with gladness, ye exiled! A war unexampled in the annals of history, waged in self - defence by a nation whose hereditary lands were regarded by her enemies as plunder to be divided, arbitrarily and at their convenience, by a stroke of the pen of Cabinets, avenges her own shame and the shame of the remotest nations, long forgotten under the yoke of slavery, and, too, the almost two - thousand - year - old ignominy put upon you; and while time and circumstances would seem to be least favourable to a restatement of your claims or even to their expression, and indeed to be compelling their complete abandonment, she [France] offers to you at this very time, and contrary to all expectations, Israel`s patrimony!

The undefiled army with which Providence has sent me hither, led by justice and accompanied by victory, has made Jerusalem my headquarters, and will, within a few days, transfer them to Demascus, a proximity which is no longer terrifying to David`s city.

Rightful Heirs of Palestine!

The great nation which does not trade in men and countries as did those who sold your ancestors unto all peoples (Joel 4:6) hereby

calls on you not indeed to conquer your patrimony, nay, only to take over that which has been conquered and, with that nation's warranty and support, to maintain it against all comers.

Arise! Show that the once overwhelming might of your oppressors has not repressed the courage of the descndants of those heroes whose brotherly alliance did honour to Sparta and Rome (Macc. 12:15), but that all the two thousand years of slavish treatment have not succeeded in stifling it.

Hasten! Now is the moment which may not return for thousands of years, to claim the restoration of your rights among the population of the universe which had been shamefully withheld from you for thousands of years, your political existence as a nation among the nations, and the unlimited, natural right to worship Yehovah in accordance with your faith, publicly and in likelihood for ever (Joel 4:20).

المحتويات

هنري لورنس

- مؤرخ فرنسي بارز، متخصص في تاريخ العالم العربي الحديث.
- أستاذ بالمعهد الوطني للغات وللحضارات الشرقية وبجامعة باريس.

له عدد من المؤلفات التاريخية المهمة، ترجم بشير السباعي منها:

(١) الحملة الفرنسية في مصر. بونابرت والإسلام، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥.

(٢) المملكة المستحيلة. فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.

(٣) الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر. الإستشراق المتأسلم في فرنسا (١٦٩٨ – ١٧٩٨)، (تحت الطبع).

(٤) كليبر في مصر (تحت الطبع).

- يكتب حالياً تاريخ فلسطين الحديث.

للمترجم

تأليف :

١ - **تروبادور الصمت**، دار النيل ، الاسكندرية ، ١٩٩٤.

٢ - **مرايا الانتلجنتسيا**، دار النيل، الاسكندرية ، ١٩٩٥.

٣ - **مبدأ الأمل**، دار حور، القاهرة، ١٩٩٦.

ترجمة :

١ - ز. ا. ليفين: **الفكر الاجتماعى و السياسى الحديث فى لبنان وسوريا و مصر** ، دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٧٨.ط ١.

ط ٢، تحت عنوان : **الفكر الاجتماعى والسياسى الحديث فى مصر والشام**، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٧.

٢ - ز. ا. ليفين : **التنوير والقومية - تطور الفكر الاجتماعى العربى الحديث**، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٨٧.

٣ - چورچ حنين : **لامبررات الوجود**، «أصوات»، القاهرة ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كامل).

٤ - تيموثى ميتشل : **استعمار مصر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان)

٥ - ك. كافافى : **قصائد**، دار الياس، القاهرة، ١٩٩١.

٦ - تيموثى ميتشل: **مصر فى الخطاب الاميركى**، مؤسسة عيبال، نيقوسيا، ١٩٩١.

٧ - تزفيتان تودوروف : **فتح أمريكا - مسألة الآخر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٢.

٨ - روبير مانتران (اشراف) : **تاريخ الدولة العثمانية** ، جزآن، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣.

٩ - فيليب فارج ويوسف كرباج: **المسيحيون واليهود فى التاريخ الاسلامى العربى والتركى**، سينا للنشر ، القاهرة، ١٩٩٤.

١٠ – ادواردو جاليانو : **الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية – تاريخ مضاد**، دار النيل، الاسكندرية ١٩٩٤ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

١١ – توماش ماستناك : **الاسلام وخلق الهوية الأوروبية**، دار النيل، الاسكندرية، ١٩٩٥.

١٢ – هنري لورنس وآخرون: **الحملة الفرنسية في مصر – بونابرت والاسلام**، سينا للنشر ، القاهرة ١٩٩٥.

١٣ – توماش ماستناك: **أوروبا وتدمير الآخر – الهنود الحمر والاتراك والبوسنويون**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٥.

١٤ – چورج حنين : أعمال مختارة، منشورات الجمل كولونيا، ١٩٩٦.

١٥ – تيموثي ميتشل: **الديموقراطية والدولة في العالم العربي** ، دار مصر العربية، ١٩٩٦.

١٦ – زكاري لوكمان: **خطاب الأفندية الاجتماعي، ١٨٩٩ – ١٩١٤**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٧.

١٧ – چان كلود جارسان : **ازدهار وانهيار حاضرة مصرية : قوص**، سينا للنشر، والقاهرة ١٩٩٧.

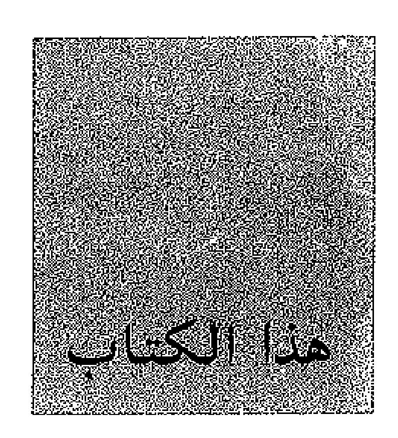
١٨ – هنري لورنس : **المملكة المستحيلة. فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث**، سينا للنشر ، القاهرة، ١٩٩٧.

١٩ – هنري لورنس : **بونابرت والإسلام . بونابرت والدولة اليهودية**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٧.

٢٠ – چويس منصور: **ثلاث مجموعات شعرية**، (تحت الطبع).

٢١ – هنري لورنس : **كليبر في مصر**. (تحت الطبع).

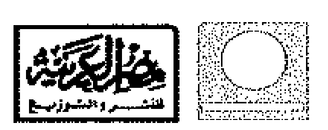
٢٢ – هنري لورنس : **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا (١٦٩٨ – ١٧٩٨)** (تحت الطبع).



يحتسوى هذا الكتاب على دراستين مهمتين كتبهما هنري لورنس في أواخر ربيع وأوائل صيف ١٩٩٧م حول مواقف بونابرت السياسية من الإسلام والمسألة اليهودية.

وتكشف الدراستان عن عدد من الإعتبارات المهمة التي حكمت هذه المواقف كما تجيبان عن عدد من التساؤلات المثارة حول ما هو حقيقي وما هو زائف في كل ما نسب إلى بونابرت حول هذين الموضوعين المحوريين.

التوزيع بدولة الامارات ودول الخليج
مكتبة الثقافة الجديدة
أبوظبي ص.ب. : ٣٥٧٠
ت : ٣٢٥٣٩٩



١٣ أ شارع إسلام – حمامات القبة
القاهرة
ص.ب. ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب
ت: ٢٥٦٢٢٦٨